كنيسة بيت المقدس
فى العصر البيزنطى

للدكتور رأفت عبد الحميد

مدرس تاريخ العصور الوسطى

بكلية الآداب

جامعة عين شمس — وجامعة صنعاء

مذ قدر للمسيحية أن تخرج على نطاق اليهودية وتمضى إلى طريق أمم ، كان عليها أن تتخلى كارهة عن أسلوب التبشير بين الأمميين بمعجزات المسيح ، وحياته على الأرض ، إلى مخاطبة عقول أولاء البشر لا عواطفهم ، حيث كانت بعض مدائنهم قد ضربت بسهم وافر فى ميدان الفلسفة ، وأصبحت الفلسفة ذاتها تمثل فى المجتمع الرومانى حوالى القرن الثانى طرائق حياة ، بل توقفت عن أن تصبح موضوعا دراسياً ، وأضحت أساساً على وفاق مع الدين . وكانت الرواقية بصفة خاصة ، بما تنطوى عليه من أخلاق سامية وإيمان بكل الآلهة وجعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعاً ، وفتح باب الفلسفة على مصراعيه ، تقدم للإنسان الحائر داخل مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال ، أساساً أخلاقيا للسلوك ومبدأ راسخاً لحياة فاضلة ، ومن ثم كانت الرواقية تمثل من هذه الزاوية عقيدة أخلاقية حتى غدا الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) ضمن حلقة سامعى الفيلسوف ابيكتاتوس Epietetus أشهر رجالاتها فى القرن الثانى بل إن الامبراطور ماركوس أوربليوس (١٦١ — ١٨٠) كان من أعلام

الفلاسفة الرواقيين[1] ولم تكن الأفلاطونية المحدثة أو الفيثاغورية الجديدة تقلان شأنا عن قريبتهما .

من أجل هذا كان على المسيحية أن تلبس رداء الفلسفة ، أو بتعبير آخر كان لا بد أن تتفلسف المسيحية . ولا يعنى هذا قيام فلسفة مسيحية بالمعنى الحقيق لكلمة الفلسفة فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ المسيحية ، ولكنه يعنى فقط مسيحية مفلسفة . حيث أن الفلسفة المسيحية لم تتبلور بصفة أساسية إلا فى القرن الثالث عشر على يد القديس توماس الاكوينى[2] St. Thomas Aquinas .

وكان طبيعياً والحالة هذه أن تتولى إلى الظل طواعية مدينة بيت المقدس ، تاركة الساحة لغيرها من مدائن نصف الامبراطورية الرومانية اليونانى ، بما حوته من مدارس فكرية ومذاهب فلسفية شتى ، بحيث لم يكن فى مقدور بيت المقدس أن تبارى تلك المدائن صيتها الذائع وشهرتها الواسعة فى مجالات الجدل الفكرى ، بعد أن أدت دورها ، الذى أتاحته لها إمكانياتها وقدراتها فى إطار المسيحية اليهودية ، والمسيحية بعد تحبو فى سنى عمرها الأولى .

واقتسمت الساحـــة الآن مدينتا الإسكندرية وأنطاكية ، وإن اختلف أسلوبهما فى صياغة المسيحيـة وطرائق التفكير عند كل منهما . فاحتضنت الإسكندرية ، بمدرستها اللاهوتية الشهيرة الفكر الأفلاطونى ، أو بتعبير أدق ، اللاهوت العلمى الأفلاطونى ، مع استخدام التفسير المجازى أو الصوفى ، إن جاز هذا التعبير ، لتفسير الكتاب المقدس ، وبلغت المدرسة السكندرية أوج عظمتها على عهـــد المفكر والفيلسوف اللاهوتى السكندرى أوريجن[3] Origenes (١٨٥ - ٢٥٤) أما أنطاكية فقد ارتضت النهج الأرسطى واختطت أسلوب تفسير الكتاب المقدس تفسيراً عقليا ، وعلا قدر مدرستها اللاهوتية على يد فيلسوفها لوسيان Lucianus أواخر القرن الثالث الميلادى[4] .

هكذا راحت الإسكندرية وأنطاكية تخطوان سريعا خطوات واسعة

باتجاه الرفعة فى عالم المسيحية ، وتستبقان فى ميدان الزعامة الكنسية ، فى وقت كانت روما ما تزال تمثل معقل الوثنية ومستقر أباطرة الرومان . ولم تكن كنيستها التى رفع القواعد منها القديس بطرس فى أوائل النصف الثانى من القرن الأول الميلادى تشغل مركزاً ذا بال آنذاك ، بينما لم تكن قد رأت النور بعد كنيسة القسطنطينية ولا المدينة . أما بيت المقدس، الكنيسة والمدينة فقد أخذت تتوارى بالحجاب متخلية عن دورها القيادى فى التبشير بالمسيحية بعد أن أصبحت المسيحية اليهودية لا تتوام وفكر الأمميين . وقد ساعدت الأحداث السياسية التى وقعت إبان القرنين الأول والثانى الميلاد على ذلك . فقد تلقت مدينة بيت المقدس لكمة قوية سددتها إليها الحكومة الرومانية سنة ٧٠ على يد القائد تيطس Titus امتدت لتدمر الهيكل وتذبح عدداً كبيراً من اليهود ، كما أن الامبراطور فسباسيان Vespasianus (٦٩ — ٧٩) فرض على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى بيت المقدس إلى البانتيون الرومانى . ثم ما لبث الامبراطور هادريان aH drianus (١١٧ — ١٣٨) أن عاجل المدينة بالضربة القاضية على أثر الثورة التى أشعلها اليهود فى عامى ١١٥ — ١١٦ وامتدت إلى مناطق عدة من الامبراطورية ، فدمرت المدينة تماما وأقيم على أطلالها مدينة جديدة سميت إيلياء Aelia Capitolina . ورغم أن هذه الضربات كانت موجهة أصلا ضد اليهود ، إلا أن آثارها المباشرة انسحبت أيضا على المسيحيين[٥] . فقد كان من جراء التدمير الذى حل بالمدينة ، أن هجرها المسيحيون إلى مدينة Pella اليونانية ، حقيقة أنهم سرعان ما عادوا إليها ثانية ، إلا أن هذا الشتات المؤقت للجماعة المسيحية ترك أثره دون شك على كنيسة بيت المقدس ، هذا بالإضافة إلى أن المدينة قد غدت — بعد بناء إيلياء . مدينة يونانية بمعابدها الوثنية ومسارحها . على أن أهم ما يلفت النظر هنا أن هذه الأحداث فى حد ذاتها كانت تعنى مزيدا من تحرر المسيحيين الأمميين من ربقة المسيحية اليهودية[٦] وبالتالى المزيد من علو كعب اللاهوت السكندرى والانطاكى وارتفاع هامتى كنيستى المدينتين .

وقد جرى على الكنيسة وشعبها فى بيت المقدس ما جرى على الكنائس الأخرى والمسيحيين فى مختلف ولايات الامبراطورية الرومانية ، خاصة الشطر الشرقى فيها ، خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ومطلع القرن الرابع ، ونعنى بذلك الاضطهاد الذى أنزله الأباطرة الرومان بالمسيحيين ، من جراء حيـــاة العزوف التى عاشها المسيحيون داخل المجتمع الرومانى ، والامتناع عن الاشتراك فى الوظائف العامة والجيش الرومانى — إلا قليلا منهم ، وفوق هذا وذاك رفضهم العبادة الامبراطورية التى كانت تمثل رمز الولاء لروما والجالس على العرش . وقد أفاض كتاب المسيحية الأوائل فى وصف هذه الأحداث ، وما وقع لشعب الكنيسة على أيدى الأباطرة الوثنيين بما فيهم المصلحون المثقفون أيضا مثـل تراجان Trajanus وهارديان[٧] وأنطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس . وإذا كانت هذه الروايات قد داخلتها الأسطورة فى بعض جوانبها ، وجنحت بها المبالغة شيئا ما ، إلا أنها مع ذلك تلقى الضوء إلى حد كبير ، على ما لقيه المسيحيون من عنت ابان تلك الفترة . ويأتى فى مقدمة هؤلاء الكتاب شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب[٨] Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين ، ولاكتانتيوس[٩] Lactantius البلاغى الأفريقى الشهير . وقد أفرد يوساب فى كتابه تاريخ الكنيسة فصلا كاملا عن شهداء فلسطين خلال عصر الاضطهاد الأعظم (٣٠٣ — ٣١٤) زمن الأباطرة دقلديانوس Diocletianus وجاليريوس Galerius وماكسيمين دايا Maxininus Daia .

وفى ظل هذه الظروف الفكرية والعقيدية والسياسية ، كانت مساهمة كنيسة بيت المقدس على امتداد هذه الفترة ، فى المسائل اللاهوتية أو حتى مسائل التنظيم الكنيسى محدودة بدرجة واضحة ، هذا إذا استثنينا أول مجمع عرفته الكنيسة فى تاريخها ، وهو المجمع الذى عقده حواريو المسيح بعد موته ، عندما كانت السيطرة ما تزال للمسيحية اليهودية ، حيث اصطدموا بموقف الأمميين إزاء مسألة

الختان حسبما تقضى به الشريعة الموسوية . وكان مجمع بيت المقدس هذا تجمعاً لآباء الكنيسة الذين تفرقوا فى الأمم بعد وفاة المسيح ، ويمثل التقاءاً استثنائياً لم تشهد الكنيسة مثله ثانية حتى مجمع نيقية سنة ٣٢٥[١٠] . وليس من المبالغة فى شىء القول بأن المجمع يعد مسكونياتجاوزا ، حيث كان هؤلاء الرسل يمثلون عالم المسيحية المحدود آنذاك ، بعد أن خرجوا من بيت المقدس وفلسطين يحملون دعوتهم إلى الأمميين .

وشهدت بيت المقدس أيضا سنة ١٩٨ مجمعاً محليا[١١] ترأسه ناركسوس Narcissus أسقف المدينة ، وحضره ثيوفيلوس Theophilus أسقف قيسارية فلسطين، وذلك للاتفاق على تحديد يوم عيد الفصح ، بعد أن ثار الخلاف بين كنائس اسيا الصغرى من ناحية وبقية الكنائس فى عالم المسيحية من الناحية الأخرى حول هذه المسألة[١٢] .

وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت تعلوها هالة كبرى من التقديس تفوق ما كانت عليه أى من المدن الثلاث .. روما والإسكندرية وأنطاكية ، التى نشأت كلها من قبل الوثنية ، إلا أن أساقفتها لم يكن لهم دور معين فى السياسة الكنسية ولم يشكلوا قوة ذات بال حتى القرن الخامس الميلادى عندما غرقت الكنيسة حتى آذانها فى ذلك الجدل اللاهوتى العنيف حول طبيعة المسيح ولم يكن بمقدورهم أن يؤدوا دورا فكريا ثقافيا أساسيا آنذاك . وحتى الدور الذى لعبته كنيسة بيت المقدس إبان ذلك الاصطراع بين الكنائس ، لم يكن يرتكز على قوة اكليروسية أو رهبانية شأن الإسكندرية مثلا ، بل كان نابعا عن طموح أسقفى إحساسا بواقع مرير وتطلعا إلى مرتبة أسمى . وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فى حينه .

غير أنه بمقدم القرن الرابع الميلادى ، واعتلاء قسطنطين Constantinus

عرش الامبراطورية (٣٠٦ – ٣٣٧) وإعـــلان المسيحية ديانة شرعية Riligio Licita وليست رسمية [١٣] ، دعيت بيت المقدس لتمارس حياة جديدة فقد حظيت فلسطين بصفة عامة بالنصيب الأكبر من الجهود التى بذلها الامبراطور قسطنطين لإصلاح ما تهدم من كنائس أو بناء كنائس جديدة ، ولعل كنيسة القيامة تعد شاهدا حيا على ما قدمه قسطنطين لبيت المقدس [١٤] وسرعان ما فاقت المدينة سيرتها الأولى عندما قدمت إليها أم الإمبراطور قسطنطين، التى ذاع صيتها باسم القديسة هيلانة سعيا وراء خشبة الصليب ، ومشاركة لجهود ولدها فى إقامة عدد آخر من الكنائس فى بيت المقدس .

وقد بذل مكاريوس أسقف بيت المقدس جهودا كبيرة حفظها له مؤرخو الكنيسة ، فى محاولة لتقديم كل عون لهيلانة فى سبيل تحقيق مسعاها [١٥] وكان أهم ما تمخضت عنه هذه الرحلة أن وضعت هيلانة بذلك أسس الحج المسيحى إلى الأماكن المقدسة ، واعتبرت هى ذاتها أول حاجة فى المسيحية ، وليسير على نهجها القديس جيروم وشعب الكنيسة المسيحية كله من بعد [١٦] وليقترن اسم بيت المقدس دائما بالأماكن المقدسة ، حتى حق لأحد المؤرخين القول بأن أهمية كنيسة بيت المقدس تعود فقط إلى كونها تعد حامية الأماكن المقدسة المسيحية، ولا شىء سوى هذا [١٧] .

ولقد كان من البدهى أن تدخل كنيسة بيت المقدس حلبة الصراع العقيدى الذى ثار مطلع القرن الرابع مبتدئا بالإسكندرية ممتدا إلى فلسطين وسوريا فآسيا الصغرى وهو الذى عرف بالمشكلة الاريوسية [١٨] ، انتسابا إلى آريوس قس الكنيسة السكندرية ، الذى نادى بخلق المسيح من العدم واعتباره فى مرحلة ومرتبة تالية للأب . وقد لاقت هذه الآراء الآريوسية رواجا واسعاً فى دوائر الكنيسة الشرقية بفعل المدارس والفكرة الفلسفية اليونانية السائدة ، وبتأثير المدرسة اللاهوتية الأنطاكية القائمة على النهج الأرسطى العقلانى – كما أسلفنا .

ومن رسالة بعث بها آريوس إلى صديقه يوساب أسقف نيقوميديا نعلم مدى انتشار العقيدة الآريوسية فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، ويذكر القس السكندرى أسماء من شايعوه من أساقفة الكنيسة فى الشرق ثم يقول « . . . وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجيونيوس Philogonius أسقف أنطاكية، وهيلانيكوس Hellanicus أسقف طرابلس ، ومكاريوس Macarius أسقف بيت المقدس[١٩] . ولا شك أن عداء مكاريوس للاريوسية كان أمراً متوقعاً، بل لقد ظلت كنيسة بيت المقدس ، طيلة القرن الرابع، الذى سعر خلاله لهيب الجدل الآريوسى على ولائها الكامل للنيقية لا تبغى عنها حولا، هذا إذا استثنينا فترة يسيرة ، أعلن فيها ماكسيموس Maximus الذى خلف مكاريوس، إدانته للأسقف السكندرى اثناسيوس ، الذى كان يعتبر المدافع الحق عن العقيدة النيقية وما لبث ماكسيموس أن عاد بكنيسته سيرتها الأولى فى عدائها للآريوسية، وأعلن توبته والندامة على ما اقترفت يداه نتيجة خداع الاريوسيين له ورفض حضور مجمع أنطاكية الآريوسى سنة ٣٤١ ، والذى عـــرف باسم مجمع القدشين[٢٠] ولعل هذا الثبات على المعتقد النيقى يعود بطبيعة الحال، إلى ما ذكرناه آنفاً ، من أن بيت المقدس لم تحظ ، كالاسكندرية وأنطاكية ، بوجود مدارس الفكر والفلسفة اليونانية ، هذا بالإضافة إلى أنها تمثل أصول المسيحية اليهودية فى عالم المسيحية .

وفى عام ٣٣٥ كانت الكنيسة التى أقامها قسطنطين فى بيت المقدس ، قد اكتمل بناؤها ووافق هـذا العام أيضاً العيد الثلاثينى Tricennalia لاعتلاء الامبراطور قسطنطين العرش ، وكان مجمع صور الذى عقد فى نفس العام قد أنهى جلساته ، وأصدر قراراته بإدانة الأسقف السكندرى اثناسيوس وعزله من منصبه ، وقدم توصياته التى تدور حول إعادة قبول أريوس وصحبه فى شركة الكنيسة ثانية ، بعد إدانته فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى مدينة نيقية

سنة ٣٢٥ وحضره الأسقف مكاريوس ، وأعطى صوته إلى جانب مخاصمى أريوس. وتلقى الحضور فى مجمع صور رسالة من الامبراطور تدعوهم للتوجه إلى بيت المقدس للاحتفال بتدشين هذه الكنيسة الجديدة . وغدت المدينة — على حد تعبير شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى مسرحا يضم خليطاً عجيبا من الأساقفة الذين وفدوا من كل الولايات الشرقية فى الامبراطورية ، وأضحت تموج بالعديد من خـــدام الرب . بالإضافة إلى عدد كبير من موظفى القصر الامبراطورى الذين أرسلوا للإشراف على هذا الحفل والارتفاع به إلى ما يناسب مكانة الامبراطور وذكرى اعتلائه العرش[٢١] .

ولا شك أن الامبراطور قسطنطين عندما وافته أنباء هذا الاجتماع، بالصورة التى جرى بها داهمه من جديد أمل إحلال السلام والوحدة داخل الكنيسة ، ومن ثم ما لبث أن بعث باريوس السكندرى وصحبه يوزيوس Euzious إلى مجمع الأساقفة فى بيت المقدس ، مخبراً إياهم أنه قد اطلع على وثيقة إيمانها التى قدماها إليه[٢٢] ، وإنه مقتنع بما جاء فيها ، ومطابقتها لقانون الإيمان النيقى ، وحثهم على قبول هذه الوثيقة وإعادة أريوس وصحبه إلى الكنيسة . ولم يكن الأساقفة فى حاجة إلى توصية من الامبراطور، فقد كانوا جميعا من مؤيدى الآريوسية ، فأصدروا على الفور قرارهم بقبول صيغة الايمان التى قدمها الرجلان إلى الامبراطور ، وإعادة قبولهما فى شركة الكنيسة ، وعودتهما إلى كنيسة الاسكندرية . ورفعوا إلى الامبراطور تقريراً بكل ما تم اتخاذه ، كما كتبوا رسائل بهذا المعنى إلى عموم الكنائس فى الاسكندرية وطيبة وليبيا ولمختلف رجال الاكليروس فى مصر، حاثين إياهم على قبول أريوس وشيعته ، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق إيمان أريوس وصحبه ، وأن الامبراطور محبوب الرب التقى الورع، قد شهد فى خطاب لهم بصحة إيمان الرجلين وأوصى بقبولهما فى الكنيسة .

وقد صمتت المصادر تماما عن الدور الذى لعبه مكاريوس خلال هـذا ولم

تفصح بشيء عن موقفه من قرار الامبراطور الخاص بقبول أريوس ثانية في الكنيسة . غير أنه يمكن القول ، تمشياً مع التقليد الكنسي ، ان مكاريوس لا بد أن يكون قد ترأس مجمع الأساقفة ذاك ، باعتباره أسقف المدينة التي التأم فيها عقده ، وانه شأن غيره من الأساقفة قد أعطى موافقته على قرارات المجمع ، ذلك ان مؤرخي الكنيسة لم يذكروا لنا أسقفاً واحداً أبدى اعتراضه على ما آرتآه جمع الأساقفة في بيت المقدس . ولا شك أن هذا يعود بطبيعة الحال ، بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه عن الإمكانيات الفكرية والخلفية اليهودية لكنيسة بيت المقدس، إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين الامبراطور ومكاريوس ، والتي تبدت في الرسائل[٢٣] التي بعث بها قسطنطين إلى أسقف بيت المقدس ، وتوطدت ابان الزيارة التي قامت بها هيلانة إلى المدينة المقدسة ومعاونة مكاريوس لها في مهمتها التي ارتحلت من أجلها ، ونتيجة للعناية الخاصة التي أولاها الامبراطور لهذه المدينة . يضاف إلى هذا أن الكنيسة عامة كانت قد رفعت قسطنطين إلى عليين ، إذ جعلته الحواري الثالث عشر للمسيح ، ومن ثم لم يكن لها أن ترفع الرأس معارضة — إذا استثنينا الاسكندرية — لامبراطور وهبها الحياة بعد أن أشرفت على الهلاك ابان عصر الاضطهاد الأعظم ، وما كان لمكاريوس إذن ، أن يقف دون أساقفة المجمع ، ليعلن عن شكوكه في صدق نيات الامبراطور أو حسن تفهمه لوثيقة ايمان اريوس ويوزيوس .

وقد أدى مجمع بيت المقدس هذا في سنة ٣٣٥ ، إلى عواقب وخيمة أرقت جفن الامبراطور ما تبقى له من عمر ، وامتد ذلك أيضاً ليشمل الكنيسة . فقد رفضت الاسكندرية الرضوخ لقرارات هذا المجمع وأعلنت عدم قبولها أريوس وحبه في كنيسة الاسكندرية ثانية ، ونشط الفريق الأريوسي الذي تولى زعامته الآن يوساب النيقوميدي ، بعد عودته من منفاه في غاله سنة ٣٢٨، ليوغر صدر الامبراطور على أسقف الاسكندرية ، حتى أصدر قسطنطين أوامره

بنفي اثناسيوس إلى مدينة تريير Trier فى نفس العام (٣٣٥) ، ورفض الموافقة على تعيين أسقف جديد للاسكندرية خلفاً له ، وظل الكرسى السكندرى شاغراً طيلة عامين حتى مات قسطنطين وعاد اثناسيوس ثانية . أما الأكليروس السكندرى وشعب الكنيسة فيها فقد تابع أسقفه فيما ذهب إليه ، وأدى دخول أريوس الاسكندرية بعد نفي اثناسيوس ، إلى وقوع الاضطرابات العنيفة بين النيقيين والأريوسيين ، مما اضطر الامبراطور — الحريص على إقرار الهدوء فى مصر من أجل القمح والنقود على حد تعبير المؤرخ جونز — إلى إستدعاء أريوس إلى القسطنطينية ولم يلبث أريوس أن حل المشكلة بنفسه عندما مات سنة ٣٣٦ ، وان كانت الاريوسية قد ظلت تمثل للامبراطورية صداعا مستمرا حتى قرب نهاية القرن الرابع .

خلال مدة تقترب من نصف القرن (٣٣٧ — ٣٧٩) كان على المثل القائل بأن الناس على دين ملوكهم ان يتوارى بالحجب ، لتحل محله ظاهرة فرضت نفسها تقول « الملوك على دين ناسهم » ، ذلك ان أبناء قسطنطين الثلاثة الذين اقتسموا فيما بينهم ، بعد وفاة أبيهم ، إدارة الحكم فى الامبراطورية راحوا يؤيدون دون وعى المعتقد الذى يحدونه كل فى اقليمه ، ولما كان الغرب الرومانى قد آوى إلى النيقية واستمسك بها ، فقد أصبح قسطنطين الثانى وقنسطانز Constans امبراطورا الغرب على النيقية . بينما أيد قسطنطيوس Constantius الاريوسية التى وجدها سائدة فى اقليمه ، أعنى الشطر الشرقى من الامبراطورية . إلا أن هذه الحالة تستمر طويلا . فبعد مقتل الأخوين قسطنطين الثانى وقنسطانز (٣٤٠ ، ٣٥٠ على التوالى) ، انفرد قسطنطيوس بحكم الامبراطورية ، ولما كان يعتنق المسيحية الأريوسية فقد حاول جاهداً فرضها على الغرب الامبراطورى والاسكندرية التى كانت تعد قلعة الارثوذكسية النيقية . غير أن هذه الجهود لم تحقق الآمال التى كان قسطنطيوس يعلقها عليها .

وان كانت السيادة على أية حال قد أصبحت الآن فى الامبراطورية للمعتقد الأريوسى[٢٤] وارتفع شأنها كذلك على عهد الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨) الذى كان يحكم النصف الشرقى من الامبراطورية . فلما خر هذا صريعاً أمام جحافل الفيزيقوط عند ادريانوبل ، اعتلى العرش ثيودوسيوس الأول Theodosius أذنت شمس الاريوسية بالمغيب ، وعلا نجم النيقية وأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمى .

وقد شهدت هذه الفترة وحتى عشرينات القرن الخامس ، عدداً كبيراً من المجاميع الكنيسية المحلية والمسكونية التى عقدت فى معظم الكنائس على إمتداد الامبراطورية من أقصى الشرق إلى الغرب القصى ، سواء بين جماعات الأريوسيين وأنفسهم ، أو النيقيين وحدهم ، أو المجاميع المشتركة التى ضمت هؤلاء وأولئك[٢٥] وحظيت بيت المقدس ببعض منها وشارك أساقفتها فى معظمها وان لم يتخل هؤلاء الأساقفة جميعهم عن النيقية كما أسلفنا .

فى عام ٣٤٦ ، وكان قسطنطيوس قد فشل فى وقف هجمات الفرس على الحدود الشرقية ، خضع لتهديدات أخيه قسطانز امبراطور الغرب ، واستسلم لقرارات مجمع سرديكا Sardica الذى عقد سنة ٣٤٣[٢٦] وقرر وجوب إعادة الأساقفة الذين عزلهم ونفاهم قسطنطيوس إلى كراسيهم ثانية . وكان من بين هؤلاء الأسقف السكندرى اثناسيوس ، الذى أمضى فترة نفيه الثانى فى الغرب فى ضيافة قسطنطين الثانى ثم قسطانز ، ورجال الأكليروس فى الغرب خاصة أسقف روما . ومن ثم سمح قسطنطيوس لأسقف الاسكندرية بالعودة إلى دياره ، فارتحل اثناسيوس قاصداً مصر ، وخرج فى طريقه على كنيسة بيت المقدس ، حيث أوحى إلى أسقفها ماكسيموس أن يدعو لعقد مجمع تحت رئاسته ، يضم أساقفة فلسطين ، لتأكيد تبرئة اثناسيوس والتوكيد على حقه فى العودة إلى كرسى أسقفيته . ولم يتوان ماكسيموس عن ذلك ، فدعا على الفور

عدداً من أساقفة فلسطين وسوريا والتأم عقد المجمع قرب نهاية عام ٣٤٦ ، ورد على اثناسيوس كرامته وشركته فى الكنيسة وبعث المجمع برسالة إلى السكندريين وكل أساقفة مصر وليبيا يمتدح فيها الأسقف السكندرى وخلقه[٢٧] ويعلق المؤرخ الكنسى سقراط على ذلك بصورة ساخرة حيث يقول ان خصوم اثناسيوس راحو يسخرون من ماكسيموس ، نظـــرا لموقفه السابق من اثناسيوس ، حيث كان قد أدانه من قبل ، كما أسلفنا ، ثم عاد ليغير رأيه فجأة إلى الإتجاه المضاد تماماً[٢٨] .

وفى سنة ٣٩٩ شهدت كنيسة بيت المقدس مجمعاً آخر دعت إليه الآراء التى دارت من حول فكر اوريجن اللاهوتى السكندرى الأشهر . والحقيقة أن اوريجين قد تعرض لكثير من النقد سواء فى حياته أو بعد موته ، وكان اول المضطهدين له الأسقف السكندرى ديمتريوس ، الذى اضطر اوريجن للارتحال من مصر متجها إلى فلسطين ، حيث اتخذ من قيسارية مستقراً له ومقاماً ، وأقام فيها صورة مصغرة من مدرسة اللاهوت السكندرى ، التى يرتبط علو شأنها باوريجين نفسه . وعلى الرغم مما قدمه اوريجين لعالم الفكر المسيحى فى مجال اللاهوت ، فقد اتهم من جانب مخاصميه بالهرطقة على اعتبار انه يمزج المسيحية بالفلسفة الوثنية . ولم يكن الجدل حول الفكر الاوريجنى قاصراً على بيت المقدس فقط ، بل شهدت الاسكندرية وقبرص مجامع لنفس الغرض ، انتهت كلها إلى لعن اللاهوت الاوريجنى . وكان الذى فجر هذا الجدل آنذاك ما دار من جدل بين كل من القديس جيروم الذى كان يقيم آنذاك بصفة دائمة فى فلسطين ، وابيفانيوس Epipanins أسقف قبرص وروفينوس Rufinus (٣٤٥ - ٤١٠) أحد شيوخ الكنيسة فى اكويليا Aquileia ، وأحد مؤرخى الكنيسة ، وكان قد قدم إلى بيت المقدس فى عام ٣٩٠[٢٩] واستمر الجدل قائما بين أباء الكنيسة حوالى عشر سنوات (٣٩٣ - ٤٠٢) ، وقد حذا مجمع بيت المقدس حذو قرينه الذى عقد فى الاسكندرية تحت رئاسة

ثيوفيلوس Theophilus ، وتبعها على نفس النهج مجمع قبرص الذى عقد عام ٤٠٢ (٣٠) .

غير أن كنيسة بيت المقدس وجدت نفسها فى بواكير القرن الخامس طرفا فى نزاع لاهوتى من نوع جديد قدم إليها من الغرب الامبراطورى ، وهو شىء لم يكن مألوفاً فى ذاك الشطر من الامبراطورية الرومانية ، أعنى اشتغال كنائس النصف الغربى بالمسائل اللاهوتية المعقـــدة ، فمنذ أقر مجمع نيقية « Hooumosius الهوموسية » آوى إليها الغرب ، واعتبرها الإيمان القويم للكنيسة ، وزاده ارتباطاً بها ، الفترة التى أمضاها الأسقف السكندرى اثناسيوس منفيا هناك ما بين (٣٣٥ - ٣٣٧) و (٣٣٩ - ٣٤٦) وبينما استعرت فى الشرق حمى الجدل اللاهوتى من حول المسيح ، انصرف الغرب لقرون متأخرة إلى الوصول بمسائل التنظيم الكنسى إلى النحو الأفضل . وكان ذلك ناجما بلا ريب عن خلو الغرب . إذا ما قورن بالشرق - من المدارس الفكرية والفلسفية اليونانية ، هذا بالإضافة إلى جمود اللغة اللاتينية ، التى لم يكن لها من الحيوية ما يساعد أصحابها على البراعة فى الجدال ، كما كانت عليه الحال بالنسبة لليونانية . ومن ثم نجا الغرب بجمود لغته وافتقاره إلى الفكر الفلسفى اليونانى من الغرق فى متاهات الكريستولوجية التى اصطك الشرق بموج دروبها .

على هذا النحو نعمت الكنيسة فى الغرب بهدوء ، لم يعكر صفو سلامه إلا جدل عقيدى صاحبه - بلاجيوس Pelagius العلمانى اللاهوتى الذى جذبت محاضراته عن أهمية الإرادة الإنسانية فى الخلاص أسماع الحضور فى روما ، ولقيت مبادئه رواجا واسعا لا فى إيطاليا وحدها بل فى غالة وبريطانيا . ولكنها قوبلت فى افريقيا بعدم الارتياح عندما انتقل كايلستوس Caelestius تلميذ بلاجيوس ، إلى قرطاجه ، حيث تمت إدانته هناك على يد أوريليوس Aurelius رئيس أساقفة قرطاجة . وقام القديس أوغسطين St. Augustinus بدور بارز

فى التصدى للبلاجية[٣١] أما ما كان من أمر بلاجيوس فإنه هجر روما ، بعد أن اجتاحتها قبائل القوط الغربيين تحت زعامة الاريك سنة ٤١٠ ، وولى وجهه شطر بيت المقدس ليبشر بدعوته هناك . ولا شك أن الآمال كانت تداعب بلاجيوس حول إمكانية النجاح الذى يرتجى تحقيقه هنا ، يدفعه إلى اليقين بذلك ما يعلمه عن طبيعة اللاهوتيين الشرقيين وعن خصوبة التربة الفكرية فى هذه المنطقة . وقد حقق بلاجيوس بالفعل بعضا مما كان يؤمله .

تولى القديس جيروم (٣٤٧ — ٤٢٠) مهمة الرد على بلاجيوس وتفنيد آرائه ، وما لبث أوروزيوس Orosius القس الأسبانى وأحد تلامذة القديس أوغسطين ، ان وفد إلى بيت لحم مبعوثا من قبل أستاذه ، ليشارك فى دحض الآراء البلاجية ، وفى سنة ٤١٥ دعا يوحنا (٣٨٨ ٤١٦) أسقف بيت المقدس مجمعا ضم أساقفة فلسطين وممثل أوغسطين لبحث الفكر البلاجية . وقد أحاط أوروزيوس المجتمعين علما ، بما تم إتخاذه من إجراءات ضد كايلستوس فى قرطاجة ، والرسالة التى وضعها أوغسطين فى الرد على دور الإرادة الإنسانية فى الخلاص كما أوضحه بلاجيوس .

وبناء على توجيهات يوحنا ، اضطر بلاجيوس إلى المثول بنفسه أمام المجمع ، فابتدره الحضور يسألون عما إذا كان قد أعلن حقيقة ذلك المعتقد الذى أدانه أوغسطين فأجاب لفوره : «لست أدرى ما أنا فاعل بأوغسطين» . وقد عد المؤتمرون ذلك نوعا من القحة تجاه رجل يسمو فى نظرهم إلى عليين ، ومن ثم استبد بهم الغضب إلى الحـــد الذى تصايحوا فيه ليس فقط بطرد بلاجيوس من قاعدة المجمع ، بل بلفظه تماماً خارج البيعة . غير أن يوحنا لم يلق بالا لكل هذه الاحتجاجات ، وسمح لبلاجيوس بالبقاء .

وتدلنا شخصية يوحنا على أنه كان يسعى إلى أن يجعل من نفسه حكما فى

المسائل اللاهوتية حتى يكسب لكنيسته بذلك مرتبة بارزة ومكانة ، فى وقت كانت قد بدأت تظهر فيه بوضوح بوادر التنافس بين الكنائس على مراكز الزعامة فى العالم المسيحى ، هذا على الرغم من أن المصادر لا تحدثنا فى كثير أو قليل عن معرفة لاهوتية حاز قصب السبق فيها يوحنا أو دراسات عقائدية وضعها . وهذه سمة واضحة سوف نجدها فى جل أساقفة كنيسة بيت المقدس أبان هذه الفترة ، وان كانوا قد ساروا على نفس النهج الذى اختطه يوحنا ، بل وتفوقوا عليه فى ذلك .

وقد وجد يوحنا فى المشكلة البلاجية فرصة يحقق بها مبتغاه ؛ فقد أعلن فى المجمع انه يعتبر نفسه الممثل الحقيقى لشخص أوغسطين ، فواجهه أوروزيوس بقوله : « إذا كنت حقاً تمثل أوغسطين فعليك إذن أن تسير على هديه » وقد علق أوروزيوس على ذلك أن يوحنا فعل هذا ليعطى لنفسه الحق فى التغاضى عن إهانة بلاجيوس لأوغسطين . ولم يلبث يوحنا أن طلب إلى أساقفة المجمع أن يعرضوا أولا الشكايات المقدمة ضد بلاجيوس ، فأعلن أورزويوس أن بلاجيوس يؤكد أن الإنسان يمكن أن يكون بلا خطيئة ، فقط إذا أراد ذلك . وهنا يؤكد بلاجيوس على دور الإرادة الإنسانية . فلما صدق الراهب الإنجليزى على ذلك ، أضاف القس الأسبانى قوله بأن هذا المعتقد قد سبق شجبه فى مجمع قرطاجة ، وأدانه كل من أوغسطين وجيروم .

ولما حمى وطيس الجدال ، قطع يوحنا ذلك بقوله انه يجب على أوروزيوس ومشايعيه أن يعلنوا بصفة رسمية أنهم يمثلون طرف الإدعاء ضد بلاجيوس ، وان يعترفوا بيوحنا قاضيا فى هذا الخلاف . غير أنهم رفضوا الاقتراح ، وفشل يوحنا فى استمالة أوروزيوس إلى القول بأن الله قد جعل طبيعة الإنسان فى ذاتها شريرة .

والغريب أن اللغة لعبت هى الأخرى دوراً كبيراً فى إتساع هوة الخلاف

بين يوحنا ويلاجيوس ومؤيديه من ناحية ، واللاتين وعلى رأسهم أوروزيوس من الناحية الأخرى . فقد ذهب بلاجيوس خطوات بعيدة عندما أعلن أنه لم يقطع بأن الإنسان لا يمكن أن يكون بطبيعته دون خطيئة ، ولكن أى فرد يمكنه تجنب الإثم بأن يستمد من الله العون والقوة ، وبدون هـذا العون السماوى لا يمكن أن يصبح بلاخطيئة . وأكد أوروزيوس هو الآخر ذلك. غير أنه لما كان أوروزيوس يتحدث اللاتينية ، بينما كان لسان يوحنا يونانيا ، فقد زاد المترجم الأمر سوءاً بالكثير من الأخطاء التى وقع فيهـا ، وهو ينقل للرجلين آراء كل منهما .

ولا شك أن أوروزيوس أدرك ما يضمره يوحنا سعياً إلى هدف معين ، وأيقن أن المجمع سوف يدور فى حلقة مفرغة دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة ، بل ربما أعلن أرثوزكسية بلاجيوس إذا أفلح أسقف بيت المقدس فى التأثير على أساقفة فلسطين حضور المجمع ، وقد أيدت الأحداث التالية ذلك . ومن ثم فقد حسم القس الأسبانى المسألة بإعلانه ، إنه لما كان خصوم بلاجيوس من اللاتين فإن القرار الذى يتعلق بهذه المسألة البلاجية يجب أن يترك لتقدير أساقفة الكنيسة اللاتينية وحدهم . وكان هذا بطبيعة الحال إرهاصاً واضحاً بما سوف تأتى به سنو النصف الأول من القرن الخامس ، استباقا إلى كرسى الزعامة .

ولما كان معظم حضور مجمع بيت المقدس ، قد ساورهم الشك فى إمكانية التوصل إلى قرار فى هذا الشأن ، فقد تنفسوا الصعداء باقتراح أوروزيوس ، وأيدوه على الفور ، وأمام ذلك أعلن يوحنا من جانبه — وقد قنعت نفسه بما حققه فى المجمع — إنه سوف يبعث إلى البابا أنوسنت الأول (٤٠٢ ٤١٧) بمندوبين عنه يحملون رسائله حول هـذه المشكلة ، مؤكداً أنه سوف يلتزم بقرار أسقف روما . وقد وافق المجمع على ذلك ، وانفض دون أن يصل إلى قرار بعينه .

غير أنه يبدو أن أوروزيوس كان مصمماً على أن يخرج بقرار إدانة

بلاجيوس من أساقفة فلسطين ، وبدا في الوقت ذاته أن يوحنا عازم بدوره على أن يتحدى أوروزيوس مهما كلفه ذلك . وعلى هذا النحو تم تصعيد الخلاف إلى مطران الناحية ، أعني أسقف قيسارية ، الذي دعا إلى مجمع تم عقده في ديسمبر من نفس العام في مدينة اللد Diosopolis حضره أربعة عشر أسقفاً وترأسه يولوجيوس Eulogius الأسقف القيساري ، بينما احتل يوحنا المرتبة التالية له مباشرة في المجمع تبعاً لما جرى به التقليد الكنسي ، باعتبار أسقف قيسارية رئيساً لأساقفة فلسطين . وقد أدى يوحنا دوره هنا كما يجب ، فأعلن مجمع اللد تبرئة ساحة بلاجيوس مما نسبه إليه من هرطقة وقبوله في شركة الكنيسة ، مما دفع القس الأسباني إلى الارتحال عائداً إلى قرطاجة بعد أن ازدادت موجة العداء ضده من جانب أسقف بيت المقدس وأتباعه[٣٢] .

وإذا كان يوحنا قد أفلح في أن يحقق لكنيسته شيئاً ضئيلا من مكانة كانت تفتقدها باعتبارها تابعة لمطرانية قيسارية فلسطين ، فإن خلفاؤه سوف يحاولون ما وسعهم الجهد أن يقفزوا بكنيسة بيت المقدس خطوات أخرى إلى الأمام ليجدوا لها مكاناً وسط عالم الكنائس الكبرى . وكانت الأحداث التي جرى بها القرن الخامس عاملا هاماً دفعهم إلى سلوك هذا السبيل ؛ ذلك أن الجدال اللاهوتي الذي دار خلال ذلك القرن حول طبيعة المسيح ، كان مظهراً خارجيا يخفي وراءه حقيقة جوهرية ، هي اصطراع الكنائس الكبرى في الامبراطورية حول الزعامة الكنسية في العـــالم المسيحي ، واتخذت كلها من مشكلة الكريستولوجية ستاراً تخفي وراءه حقيقة أهدافها ونواياها . وقد راحت كل من هذه الأسقفيات الكبرى تفتش في ماضيها ، أو حتى حاضرها ، عن البراهين والأدلة التي يمكن أن تقدمها في حلبة السباق هذي . وسارعت كل منها إلى وضع النظريات والتفسيرات التي تدعم مركزها وترفعها قدراً عن غيرها .

فقد أذاعت روما أن القديس بطرس هو الذي أرسى قواعد الكنيسة فيها ،

وشاركه فى ذلك أيضا القديس بولس[٣٣] ولما كان بطرس هو أمير الرسل ، والصخرة التى بنى عليها المسيح كنيسته وصاحب الربط والحل على الأرض تباركه السماء فى ذلك ، كما جاء فى حديث المسيح إليه ، فقد اعتبرت كنيسة روما نفسها أعلى كعبا من كل الكنائس الأخرى بطبيعة نشأتها ، وأضافت إلى ذلك عاملا سياسيا يتمثل فى أن روما المدينة كانت عاصمة الامبراطورية الرومانية لقرون طويلة ، وفيها مستقر الأباطرة ومقامهم . وساعد روما على أن تمسك بهذا الادعاء أن ميدان المنافسة على الزعامة فى الغرب قد خلا تماما من أية أسقفيات أخرى قد تنازع روما هذه المكانة ، هذا إذا استثنينا فقط أسقفية ميلانو إبان فترة قصيرة من الزمن اعتلى فيها كرسى الأسقفية القديس امبروز Ambrosius (٣٧٤ - ٣٧٩) ، ومن ثم انفردت روما وحدها فى الغرب بزعامة الكنيسة[٣٤] . يضاف إلى ذلك أن كنيسة روما حظيت منذ القرن الثالث بعدد من الشخصيات القوية التى تولت أمور أسقفيتها ، كان من بينهم ديونيسيوس Dionysius (٢٥٩ — ٢٦٨) . وليو الأول Leo I (٤٤٠ ٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius I. (٤٩٢ ٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius I (٥٩٠ - ٦٠٤) هذا بالإضافة إلى البابوات الذين تولوا كرسى أسقفية روما بعد ذلك خلال القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر .

أما الاسكندرية فقد كانت تعتبر نفسها بلا منازع كعبة الفكر اليونانى والثقافة فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وقبلة العلوم والمعرفة الإنسانية بمختلف فروعها ، يقصدها حجيج الدارسين من مختلف ولايات الامبراطورية ، حتى من بين فلاسفة اليونان أنفسهم . وقد ذهبت مدارسها الفلسفية بشهرة واسعة ، فلما جاءتها المسيحية لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق . ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب ، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة وامتزجت فيها المسيحية بالتراث الفكرى الكلاسيكى ، فقدر لها بذلك أن تؤدى دوراً بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا ،

وقدمت لعالم هذه العقيدة الجديدة أشهر آبائه فى اللاهوت يأتى فى مقدمتهم كلمنت Clemens (حوالى ١٥٠ - ٢١٥) واوريجين (١٨٥ - ٢٥٤) وديونيسيوس Dienysius الذى تولى أسقفية الاسكندرية فيما بين عامى (٢٤٦ - ٢٦٥) وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين[٣٥] إلى الحد الذى دفع واحد من المؤرخين إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد أثر فى تطوير العقيدة المسيحية، مثلما فعلت مصر. بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الاسكندرية[٣٦].

وإذا كانت روما تفاخر بأن مؤسس كنيستها هو بطرس، فإن الاسكندرية راحت تعلن أن واضع أسس أسقفيتها هو القديس مرقس، ولا ينقص من قدرها أن مرقس كان تلميذا لبطرس ومترجما وابنا له بالتبنى، وإنه وضع إنجيله بناء على «رغبة الإخوة فى روما» ثم جاء ليبشر به الإسكندرية[٣٧]. ومن ثم فهى تعتبر نفسها كنيسة رسولية بالانتساب إلى بطرس ممثلا فى شخص مرقس ولم تنس الإسكندرية فى خضم هذا الاصطراع أن تذكر الجميع دائما أنها كانت لثلاثة قرون خلت قبل الميلاد عاصمة امبراطورية البطالمة أصحاب السيادة البحرية فى شرق المتوسط إبان تلك الفترة، وأن روما لم تعد تبزها هذه المكانة بعد أن هجر الأباطرة التيبر إلى البسفور، بل إن أباطرة النصف الغربى أيضا فى القرن الخامس قد ولوها ديرهم ليقيموا فى رافنا.

ولم تكن كنيسة انطاكية تعتبر نفسها أقل شأنا من قريناتها، فقد كانت حاضرة سوريا السلوقية زمنا ليس باليسير، كما أنها كانت هى الأخرى أحد مراكز الفكر الفلسفى اليونانى فى الشرق، واشتهر من بنيها الفيلسوف الوثنى ليبانيوس Libanius (٣١٤ - ٣٩٣) الذى كان أستاذاً للامبراطور جوليان،

ويوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧) اللاهوتي الأنطاكي الشهير[٣٨] وأسقف القسطنطينية (٣٩٨ - ٤٠٣) ونسطور Nestorius الراهب الذي تولى أسقفية القسطنطينية في عشرينيات القرن الرابع ، وأذاع آراءه الشهيرة حول العذراء أم المسيح . وحرصت الكنيسة الأنطاكية على أن تقدم من خلال مدرستها اللاهوتية المسيحية في صورة عقلانية متبعة في عرضها إياها النهج الأرسطي ، وعدت نفسها كنيسة رسولية لانقل عن روما مكانة حيث أن القديس بطرس كان قد أسس كنيستها قبل أن يبشر بالعقيدة المسيحية في روما حيث أمضى هناك سبع حجج تقريباً ما بين عامي (٣٤ ، ٤١)[٣٩] .

أما القسطنطينية ، فقد ألفت نفسها مدينة حديثة عهد بالحياة ، ومن ثم كانت في القرن الخامس الميلادي ، ما تزال تحبو في عمر الزمن إذا ما قورنت بروما والاسكندرية وانطاكية ، فقد احتفل بافتتاحها في ١١ مايو سنة ٣٣٠ بعد أن بدأ الامبراطور قسطنطين يضع حجر الأساس في بنائها عام ٣٢٤ ، ولهذا وجدت نفسها وقد افتقدت الأصالة التاريخية ، ولكنها سرعان ما استعاضت عن ذلك بإعلانها أن هذه المدن الثلاث نشأت أصلا مدنا وثنية ، بينما بنيت القسطنطينية منذ اليوم الأول لها مدينة مسيحية لم تحن جبهتها في يوم لوثن . وانه إذا كانت روما والاسكندرية وأنطاكية تفاخر بأنها كانت حواضر للامبراطورية الرومانية ودولتي البطالمة والسلوقيين على التوالي ، فان ذلك شيئا «كان» أما القسطنطينية فهي عاصمة الامبراطورية الرومانية «الآن» وهي مستقر الأباطرة ومقامهم . وانها قلعة المسيحية الأرثوذكسية التي تصدت ، وما تزال ، بحزم لهجمات جحافل الجرمان الذين اعتنقوا المسيحية الأيورسية[٤٠] وراحوا يقطعون أوصال النصف الغربي من الامبراطورية بعد معركة ادريانوبل سنة ٣٧٨ وعلى إمتداد القرن الخامس .

ولكن كنيسة القسطنطينية كانت تشعر بقصر قامتها إزاء الأسقفيات

الرسولية الأخرى التى أرسى قواعدها رسل المسيح ، إذ أن نشأتها الحديثة لم لم تتح لها أن تحظى بمثل هذه المرتبة ، غير أن القسطنطينية لم تعدم وسيلة إزاء ذلك بحيث تتوافر لديها الأسانيد الكفيلة بدفعها للمزاحمة على مركز الزعامة الكنسية ، ووجدت ضالتها فى إنجيل يوحنا الذى ينفرد عن بقية الأناجيل الثلاثة الأخرى ، بسبق تعرف القديس أندراوس إلى المسيح قبل أخيه بطرس ولما كانت الروايات تنسب إلى اندراوس تأسيس كنيسة بيزنطة حيث ألقى على عاتقه مهمة التبشير بالمسيحية فى منطقة سكيزيا Scythia الأوروبية (شمال البحر الأسود ما بين الدانوب وطانى Tanais) . وتم نقـــل رفاته إلى القسطنطينية على عهد الامبراطور قسطنطيوس سنة ٣٥٧[٤١] . ولما كانت القسطنطينية قد بنيت على أطلال بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة ، وكنيستها تعد إمتداداً لها ، فانها تقفز بذلك إلى المرتبة الأولى بين الكنائس الرسولية . وإن كانت كنيسة القسطنطينية لم تزين مفرقها بلقب رسولى ، ومن ثم لم تعلن رواية إنتساب كنيستها إلى القديس اندراوس إلا فى فترة لاحقة أواخر القرن السادس أو أوائل القرن السابع .

وليس من شك فى أن كنيسة بيت المقدس كانت تفوق هذه الكنائس جميعها مرتبة وترتفع بهامتها فوق الكراسى الرسولية الأخرى ، فهى الأم الأولى لكل الكنائس الأولى والنواة الرئيسية للمجتمع المسيحى كله ، ونقطة الإنطلاق فى التبشير بالمسيحية . أرسى المسيح بنفسه فيها كنيسته وتولى أمرها من بعده وكان أول أساقفتها جيمس ، الذى دعى « بأخى الرب » وذاع صيته باسم « العادل »[٤٢] وشهدت مولد ما عرف باسم « الشيوخ السبعة » للقيام بالخدمة اليومية ، فكان ذلك فاتحة لمسائل التنظيم الكنسى فيما يتعلق بخدمة القداس ورعاية شعب الكنيسة[٤٣] . وعرفت أول تجمع لآباء الكنيسة جميعهم ، قبل أن يقدم قسطنطين على عقد المجمع المسكونى الأول بثلاثة قرون عندما التقى جميع الرسل الاثنى عشر بها ، بعـــد أن مضوا إلى طريق أمم

واصطدموا بأسلوب التفكير الوثنى وطرائق حياة الامميين[٤٤] بل ان كثيرين من آباء الكنيسة الأول كانوا يفتخرون بالانتماء المجازى إلى مجتمع بيت المقدس ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكره بامفيليوس Pamphilius شيخ كنيسة قيسارية فلسطين وأستاذ يوساب المؤرخ الكنسى الشهير ، أثناء التحقيق معه بعد أن ألقى القبض عليه خلال فترة الاضطهاد الأعظم (حوالى سنة ٣١١) ، من انه ينتمى إلى «أورشليم» التى جرى ذكرها بالتمجيد والاطراء على لسان القديس بولس فى رسالتيه إلى غلاطية والعبرانيين[٤٥] . وإلى جانب هذا فهى تضم الأماكن المقدسة التى تهفو إليها قلوب شعب الكنيسة فى الشرق والغرب على السواء .

وكان طبيعيا أن تحرز كنيسة بيت المقدس قصب السباق فى ميدان التنافس على الزعامة ، بكل هذا التراث الذى تحمله على عاتقها تباهى به . ولما كانت الكنائس الأسقفية الأخرى تدرك ذلك تماما ، فقد حرصت منذ البداية على أن تقنن أوضاعها ومراكزها ، متغافلة عن عمد كنيسة بيت المقدس ساعية كلها إلى إحباط مساعيها حتى لا تدخل حلبة المنافسة بادىء ذى بدء . وساعدتها الظروف على ذلك نتيجة تلك الضربات التى كالتها الامبراطورية الرومانية للمدينة من جراء ثورات اليهود خلال القرنين الأول والثانى للميلاد ، واختصاص فلسطين ، إلى جانب مصر بالمزيد من الاضطهاد الوثنى لجماعة المسيحيين . كما أن كنيسة بيت المقدس حتى ، بعد تحول الدولة المسيحية افتقرت إلى الشخصيات القوية التى يمكن أن تتولى أمورها ، ولم تحظ بمثل ما حظيت به كنيستى روما والاسكندرية ، ومن ثم لم تجد مدافعاً عن حق لها فى المجامع الكنسية المسكونية التى جرى فيها تقنين مراتب الأسقفيات الرسولية . ولما كان التنظيم الكنسى قد جرى منذ البداية على هدى التقسيم الإدارى للامبراطورية ، ولما كانت قيسارية قد أصبحت عاصمة لولاية سوريا الرومانية منذ عهد الامبراطور أسكندر سفروس Alexander Severus (٢٢٢ — ٢٣٥) فقد أصبح أسقفها

بالتالى مطران الولاية ، وكان على كنيسة بيت المقدس أن تصبح تابعة لها رعويا[٤٦] .

وقد خطت الأسقفيات الكبرى أول خطوطها فى سبيل الزعامة ، وعرقلة أى جهد قد تقوم به ، أو أمل تسعى إليه كنيسة بيت المقدس فى ميدان هذا التنافس ، وذلك من خلال القوانين التنظيمية التى صدرت عن مجمع نقية سنة ٣٢٥ ، فقـــد نص القانون السادس على أسبقية الأسقفيات الثلاث روما والاسكندرية وأنطاكية ، واعترف بحقها فى الإشراف على المناطق التى كانت قد أصبحت بالفعل تحت رعايتها ، وامتد إليها نفوذها[٤٧] وكان هذا اعترافا صريحا من أساقفة الكنيسة عامة فى الشرق والغرب فى أول مجمع مسكونى ، بما عليه هذه الأسقفيات الثلاث من التقدمة على غيرها .

وعلى سبيل الترضية ، أردف المجمع هذا القانون ، بالقانون السابع الذى نص على كنيسة بيت المقدس تحتل المكانة التالية (الرابعة) فى المجد والكرامة بعد الكنائس الثلاث الأولى على أن تظل خاضعة لإشراف مطرانية قيسارية فلسطين .

ورغم ما يذكره بعض المؤرخين[٤٨] من أن هذا القانون ، أو هذه الكلمات المفعمة بالمودة ، تحدد الخطوة الحاسمة فى عملية الخلق التى تمت فى القرن الخامس بالنسبة لبطريركية بيت المقدس ، إلا أن الحقيقة التى لا مراء فيها أن القانونين السادس والسابع يتضمنان أمرين لا يمكن إغفالهما .

أولهما . . أن الكنيسة الجامعة ، ممثلة فى المجمع المسكونى الأول ، قد اعترفت صراحة بأسبقية روما والاسكندرية وانطاكية على بقية الكنائس دون منازع . ولم يرد للقسطنطينية ذكر هنا ، حيث لم يكن قد اكتمل بعد بناؤها .

والأمر الثانى ، أن المجمع قد حدد — بما لا يدع للشك — وضع كنيسة بيت المقدس ، وأذن لها باحتلال المرتبة الرابعة بعد هذه الكراسى الثلاثة . وزاد هذا الأمر سوءاً ، أن المجمع التزم هنا بالتقسيم الإدارى للامبراطورية والذى سار عليه منذ بداية وضع أصول التنظيم الكنسى ، فأخضع كنيسة بيت المقدس لأسقفية قيسارية . ومنذ هذا التاريخ غدا من سلطة المجامع المسكونية أن تحدد ترتيب الأسقفيات وأسبقية هذا الكرسى أو ذاك . وهكذا ضمنت هذه الكنائس الثلاث بمقتضى قانون كنسى عالمى — عدم مزاحمة كنيسة بيت المقدس لها بعد ذلك إبان فترة الاستباق من أجل الزعامة الكنيسة فى عالم المسيحية .

وكأن كنيسة بيت المقدس قد رضيت بذلك الأمر، وإن كانت كارهة خاصة وإنها لم تجد لها من بين حضور المجمع من يتولى مهمة الدفاع عن حق لها ، ولم يهيء لها القدر — كما أسلفنا — أيا من الشخصيات القوية التى يمكن أن تعمل جاهدة من أجل هذا الحق . ومن ثم اقتصر صراعها فقط على أن تتحرر من سيطرة قيسارية . وكان ذلك يمثل السمة العامة لها طوال القرن الرابع والخامس الميلاديين .

ولعلنا نلمس ذلك بوضوح فيما أقدم عليه أساقفتها خلال تلك الفترة، من إظهار نوع من التحدى عنيفاً كان أو يسيراً — لأسقفية قيسارية ؛ ففى عام ٣٤٦ ، التام كما أوضحنا عقد مجمع بيت المقدس لمناصرة الأسقف السكندرى اثناسيوس الذى عاد فى هذه السنة من منفاه فى الغرب متوجها تلقاء الإسكندرية وكان من الطبيعى — كما جرى به العرف وكذا القانون الكنسى — أن يحصل ما كسيوس أسقف بيت المقدس على موافقة الأسقف القيسارى لعقد هذا المجمع ، غير أن ما كسيوس تجاهل تماماً هذا الحق ، وضرب بالعرف والقانون الكنسى عرض الحائط[٤٩] ، وأخذ على عاتقه وحده مسئولية توجيه الدعوة

إلى أساقفة فلسطين ، وترأس جلسات المجمع وأصدر قراراته المؤيدة لإثناسيوس وكان هذا إمعاناً فى التحدى خاصة إذا علمنا أن أسقف قيسارية « أكاكيوس »[٥٠] Acacius كان من أشد المتحمسين للمسيحية الأريوسية . بل كان زعيما لإحدى الفرق الأريوسية القوية .

وقد رأينا من قبل ذلك الدور البارز الذى قام به يوحنا أسقف بيت المقدس ، خلال اشتداد الجدال حول المشكلة البلاجية وما انتهى إليه أمر مجمعى بيت المقدس واللد سنة ٤١٥ ، رغم أن المجمع الأخير كان تحت رئاسة يولوجيوس أسقف قيسارية ، وكيف سعى يوحنا إلى إحباط جهود أوروزيوس لدى الأسقف القيسارى أن رفع القضية إليه .

وازدادت حمى الصراع ، وظهرت بواعثه سافرة إبان أسقفية كيرلس (٣٥٠ — ٣٨٨) التى استمرت لفترة طويلة ، فقد دخل منذ البداية فى نزاع علنى مع أكاكيوس الأسقف القيسارى ، حول حقوق المطران ، وهى الحقوق التى يطالب بها باعتبار أسقفيته أسقفية رسولية[٥١] بل أكثر من هذا أنها أم الكنائس ، والنواة الأولى للمجتمع المسيحى .. وقد أدى هذا الجدل إلى إثارة شعور العداء بين الأسقفين ، وراح كل منهما يتهم الآخر بانتسابه إلى صفوف الهراطقة . ولما كان أكاكيوس أسقف قيسارية آريوسيا ، وكانت الامبراطورية آنذاك على عهد الامبراطور قسطنطيوس يؤيد الأريوسية وتضطهد خصومها ، تعرض كيرلس للعزل من منصبه على الرغم من أنه كان يمثل جيل النيقية المعتدلة بعيداً عن التطرف الذى يمثـــله إثناسيوس الأسقف السكندرى ويوستاثيوس Eustathius الانطاكى الذى أفلح الأريوسيون فى عزله من منصبه سنة ٣٣٠ . غير أن كيرلس لم يستسلم لقرار عزله ، فبعث برسالة تحمل التهديد إلى خصومه بأنه سوف يصعد القضية إلى أعلى المستويات . ومن ثم بعث بشكايته للامبراطور قسطنطيوس ، الذى صدق على هذا الملتمس . ويقول المؤرخ الكنسى سقراط

معلقا على هذا الموقف «أن كيرلس كان أول اكليروسى ، بل رجل الدين الوحيد الذى غامر بالخروج على التقليد الكنسى وذلك باستئناف الحكم الصادر ضده كما هو شائع فى القضاء المدنى» [٥٢] ، وعلى الرغم من أن المنشقين عن مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ قد حكموا بإعادته إلى كنيسته إلا أن انتصار الامبراطورية للأريوسية أتاح لأكاكيوس وحزبه ، أن يستولى على كنيسة بيت المقدس ،وأن يتتابع عليها ثلاثة من الأريوسيين إلا أن كيرلس سرعان ما عاد ثانية إلى كرسيه وظل فترة طويلة حتى نهاية عمره يحتفظ بسيادته، على كنيسة بيت المقدس ، حتى أن مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس سوزومين Sozomenos يذكر أنه فى الوقت الذى كانت فيه كل الكنائس أريوسية طوال عهد فالنز (٣٦٤ – ٣٧٨) وأوائل عهد ثيودوسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥) ، فقد وقفت بيت المقدس وحدها وسط هذا المحيط الأريوسى نيقية تحت زعامة كيرلس [٥٣] .

ولما كانت القسطنطينية قد وجدت نفسها بين تلك اللدات الثلاث ، روما والاسكندرية وأنطاكية دون سند قانونى من مجمع مسكونى يعترف بقدرها، فقد اهتبلت فرصة عقد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية سنة ٣٨١،لمناقشة الآراء المقدونية التى أذاعها مقدونيوس Macedonius أسقف القسطنطينية حول خلق الروح القدس [٥٤] لتحقق بغيتها . ومن ثم صدر القانون الثالث للمجمع على النحو التالى : « يحتل أسقف القسطنطينية المرتبة الأولى بعد أسقف روما حيث أن القسطنطينية هى روما الجديدة » [٥٥] وكان معنى هذا القانون أن تهبط كل من الإسكندرية وأنطاكية إلى المرتبة التالية ، وأن تتوارى كنيسة بيت المقدس إلى المرتبة الخامسة ، ولم تجد نفعا الاحتجاجات التى أعلنها أساقفة روما ضد هذا القانون [٥٦]. ومما هو جدير بالذكر أن كيرلس أسقف بيت المقدس، كان بين حضور هذا المجمع وأعطى تصديقه على هذا القرار ، ولم يبد أى تعليق إزاء وضع أسقفيته [٥٧] .

وقد كتب أساقفة مجمع القسطنطينية رسالة مجمعية مطـــولة إلى البابا

داماسوس الأول (٣٢٦ - ٣٨٤) الذى كان قد دعا إلى عقد مجمع مضاد فى روما[٥٨] فى العام التالى مباشرة (٣٨٢) أعلن تمسكه بالقانون السادس لمجمع نيقية . وتناولت هذه الرسالة بالتفصيل الاضطهادات التى تعرض لها النيقيون فى الشرق على يد أساقفة الأريوسية وأباطرتها قبل عهد ثيودوسيوس ، وأثنت على كيرلس . « الوقور التقى » أسقف كنيسة بيت المقدس أم كل الكنائس وجهاده الكبير ضد الأريوسيين ، ولكن هذا الاعتراف لم يغير شيئاً من الحقيقة الواقعة بوضع كنيسة بيت المقدس صراحة فى ذيل قائمة الكنائس الرسولية .

غير أن الجدل اللاهوتى الذى اندلع فى النصف الأول من القرن الخامس فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، حول طبيعة المسيح كان فرصة سانحة حرصت الكنائس جميعها على انتهازها ، لتحقيق الزعامة الكنسية ، واتخذت هذه الأسقفيات كلها من المسألة الكريستولوجية ستاراً تخفى وراءها أهدافها الحقيقية . وشاركت كنيسة بيت المقدس هى الأخرى بدورفعال بغية احتلال أحد المراكز الهامة فى ميدان الزعامة . ولا يعنينا هنا أمرهذا الجدل اللاهوتى وتفاصيله العميقة ، إلا بالقدر الذى يسمح بإلقاء الضوء على الدور الذى قامت به كنيسة بيت المقدس خلال ذلك الاصطراع الكنسى .

فى عام ٤٢٨ اعتلى الراهب الأنطاكى نسطور Nestorius كرسى أسقفية القسطنطينية ، وهو يعود بجذور تفكيره وأصول ثقافته إلى المدرسة العقلانية الأنطاكية ، ويؤمن بما جاء فى قانون الإيمان النيقى ، « إن ابن الله تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء » والعذراء بشر والبشر لا تلد إلها . ومن ثم فليس من المنطق القول عنها أنها « أم الإله » ، وهو يعترف بطبيعتين للمسيح ، طبيعة ابن الله المساوى للأب فى الجوهر ، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء ويغلب الطبيعة البشرية فى المسيح . وعليه يغدو تعبير « والدة الإله »

خلطاً بين اللاهوت والناسوت . العذراء إذن أم المسيح البشر ، وليست أم المسيح الإله »[٥٩] .

وقد ارتاعت القسطنطينية فور سماعها بهذه الأنباء ، حيث عمد أسقفها الجديد إلى حرمان المدينة فخار حاميتها . . أم الرب . غير أن نسطور لم يأبه بشيء من ذلك ، وخاطب الامبراطور بقوله : « اعطني الأرض وقد تطهرت من المارقين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم » .

وعلى حين وقف الامبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) إلى جانب أسقفه ، أعلن الأسقف السكندري كيرلس (٤١٢ ٤٤٤) إدانته لآراء نسطور ، ووافقه الرأي أسقف روما ، وفوضه — دون أن يعلم شيئاً عن حقيقة هذه المسألة اللاهوتية — في عزل نسطور . وأقنع أسقف القسطنطينية الامبراطور بالدعوة لعقد مجمع كنسي لحسم هذا الجدال . وفي أحد العنصرة Whit Sunday السابع من يونية سنة ٤٣١ التأم عقد المجمع المسكوني الثالث في مدينة أفسوس Ephesus ولما كان كيرلس السكندري قد عزم على أن يكسب هذه الجولة من جولات الصراع الكنسي ، كما كسب سابقتها ثيوفيلوس[٦٠] ، فقد اصطحب معه إلى مدينة المجمع عدداً كبيراً من أكليروسه ورهبان مصر لمساندته في موقفه .

ولقد ظهر واضحاً منذ البداية وحتى قبل أن يلتئم عقد المجمع ، إن هناك انقساماً واضحاً بين الأساقفة المشتركين فيه ، وإن كلا منهم يسعى لاستقطاب أكبر عدد من الحضور إلى جانب هذا الفريق أو ذاك . فوقفت روما تؤيد الاسكندرية ، كوسيلة لقهر أسقف القسطنطينية ، وتعبيراً عن الحقد الذي كان يعتمل في نفس كل من الكنيستين تجاه القسطنطينية نتيجة لما خصها به المجمع المسكوني الثاني ، هذا بالإضافة الى أن كنيسة القسطنطينية قد كسبت لنفسها عدداً من الأعداء الذين يحيطون بها ممثلين في كنائس آسيا الصغرى ، نتيجة لامتداد

سلطانها إلى عدد من كنائس هذه المنطقة ، وكذا منطقة تراقيا التى كانت كنائسها تخضع قبل ذلك لأسقفية هرقليا Heraclea وكان عدد كبير من هؤلاء يتوق إلى الحصول على حريتهم وسلطاتهم . ومن ثم أصبح ممنون Memmnonius أسقف أفسوس من أشد الأساقفة تأييداً لكيرلس السكندرى[٦١] . أما أنطاكية فكانت تقف فى الناحية الأخرى تشد من أزر القسطنطينية حيث كان نسطور أحد تلامذة مدرستها ورئيساً لواحد من أديرتها . ولم تكن أراؤه عن «أم الإله» جديدة على الفكر اللاهوتى الأنطاكى .

هذا بينما صمت كنيسة بيت المقدس منذ اللحظة الأولى ، على أن تخرج من هذا الاستباق بشىء ، وأن لا تقف هكذا موقف المشاهد فحسب . . بل يجب أن تشارك بدور ، مهما يكن حجة لتحريك الأحداث ، والتأثير فيها كلما أمكنها ذلك . وساعدتها الظروف حيث كان يلى أمرها آنذاك جوفينال Juvenalius (٤٢٥ - ٤٥٨) ، وهو شخص عرفه الجميع ، كما يدل سجله الوظيفى ، مداوراً أثيما نهازا للفرص مستهترا طموحا بغير حدود . كان هدفه الأساسى والوحيد أن يجعل من أسقفيته بطريركية . ولما كان يوحنا أسقف أنطاكية ، الذى يمثل خصمه العنيد فى هذا المشروع ، يقف إلى جانب نسطور ، فقد أعان جوفينال انضمامه إلى كيرلس السكندرى[٦٢] .

على هذا النحو جرت الأحداث فى مجمع أفسوس ، فلم يكن مجمعاً بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، وإنما اتخذت قراراته كلها بصورة حزبية . فاجتمع كيرلس وممنون وجوفينال وأدانوا نسطور وهزلوه ، فلما حضر الوفد الأنطاكى بزعامة يوحنا ، وكان قد تأخر به الطريق ، عقد اجتماعاً مع أساقفة القسطنطينيين تحت رعاية كانديديان Candidianus ممثل الامبراطور ، وتقرر إدانة كيرلس وممنون وعزلهما . ولم يشمل قرار الإدانة هذا جوفينال ، وربما يعود ذلك إلى أسلوب المداورة والمداهنة الذى يجيده أساقفة بيت المقدس ، وسوف نلمس

ذلك بوضوح فى مواقفه المتباينة بل المتضادة . أو لعل الفريق القسطنطينى الأنطاكى كان يطمع فى استرضائه وضمه إلى صفه للحصول على تأييده . وسرعان ما وصل مندوبو البابا فأعلنوا على الفور مساندتهم للإسكندرية وحلفائها .

أعيا خلاف الرأى والهوى هذا ثيودوسيوس الثانى الامبراطور ، وحتى يكون مع نفسه والحق منصفاً ، فقد صدق على عزل الأساقفة الثلاثة رؤوس الجدال ، كيرلس ونسطور وممنون ، ولعن كل فارق عن الإيمان النيقى والغريب أيضاً أن قرار الامبراطور قد خلا من إدانة جوفينال ، وقد صمتت المصادر عن ذلك تماما ، ولا نجد لهذا الموقف تفسيرا ، إلا ما ذكرناه للتو ، أعنى سياسة المراوغة التى كان يتبعها أسقف المدينة المقدسة ، والتى نجح من خلالها فى الافلات من إدانة الأساقفة وغضبة الامبراطور . وإن كان هذا فقط هو كل ما استطاع جوفنال أن يحققه من هذا المجمع .

خلاصة القول أن كيرلس السكندرى لم يستسلم لهذا القرار وأفلح عن طريق وسائله الخاصة فى إلغاء قرار عزله ، وأن يستعيد كرسيه الأسقفى ثانية ، وأن يحقق لحليفه ممنون أسقف أفسوس نفس النتيجة[٦٣] .

ولم يمض على ذلك أقل من عشرين عاماً ، حتى اندلع الصراع من جديد ، أو بتعبير أدق ، ازداد أواره ، حيث أنه لم يخب طوال هذه السنين ، فقد انقسمت الكنيسة بين مؤيد ومعارض للآراء النسطورية أو الكيرللية ، ووصل التطرف هنا وهناك مداه فى نهاية النصف الأول من القرن الخامس . حيث أكد الراهب القسطنطينى يوطيخا Eutyches على الطبيعة الواحدة فى المسيح وهى الطبيعة الألهية . وقد عرف أصحاب هذا الرأى بالمنافرة Monophysites وأعلنت كنيسة الاسكندرية قانون إيمانها على لسان أسقفها الجديد ديوسقورس Dioscorus الذى خلف كيرلس سنة ٤٤٤ ، ويقول بوجود طبيعة واحدة فى المسيح من

طبيعتين . ولما حمى وطيس الجدال بين يوطيخا من ناحية ، وفلافيان Flavianus أسقف القسطنطينية ، ويوساب أسقف ضورلة Dorylaeum ، وليو الأول أسقف روما من ناحية أخرى ، أقدم الامبراطور ثيودسيوس الثانى على توجيه الدعوة لعقد مجمع كلسى جديد ، اتخذ من مدينة أفسوس للمرة الثانية مكانا لانعقاده .

وفى الثامن من أغسطس سنة ٤٤٩ بلغ عدد الأساقفة الذين تقاطروا على مدينة المجمع ١٣٠ أسقفاً تمثلت الأغلبية فى الأساقفة المصريين بزعامة ديوسقورس، والاكليروس الفلسطينى يقود جمعه جوفينال ، وترأس الأسقف السكندرى جلسات المجمع . وقد قام أسقف بيت المقدس هنا بنفس دوره فى المجمع السابق ، ذلك أنه لما كان دومنوس Dominus أسقف أنطاكية مؤيدا لكنيسة القسطنطينية وأسقفها فلافيان ، فقد راح جوفنال يعضد يوطيخا والأسقف السكندرى ديوسقورس . وانتهى الأمر بتبرئة ساحة يوطيخا وإعلان قوامة إيمانه . وإدانة فلافيان ويوساب ودومنوس وعزلهم من أسقفياتهم . وعاد جوفنال يتباهى بما حققه من نصر على الأسقف الأنطاكى الذى كان يمثل له حجر عثرة يعوقه عن الارتقاء بأسقفيته إلى مكانة مرموقة بين قريناتها .

ويبدو أن كنيسة بيت المقدس ، قد أضحت الآن فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما كان يسعى إليها أساقفتها. وساعدت الأحداث السياسية نفسها على تيسير هذا المبتغى . فقد توفى ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ ، ولما لم يعقب وريثاً ذكرا ، فقد خلفه على العرش مارقيان Marcianus عضو السناتو ، الذى كان يدرك تماما أنه لا ينتمى إلى الأسرة الثيودوسية ، ومن ثم اقترن باخت الامبراطور الراحل بولكيريا Pulcheria زواجا سياسيا محضا . ولكنه كان يحرص فى الوقت ذاته على استرضاء أسقف روما بعد أن تدهورت الحالة السياسية فى النصف الغربى من

الامبراطورية تحت ضربات جحافل الجرمان ، حتى يضمن بذلك عونه فى الحصول على رضاء امبراطور الغرب فالنتينيان الثالث عن اعتلائه العرش، حيث كان امبراطور الغرب يعتبر الوريث الشرعى لابن عمه وصهره ثيودوسيوس الثانى . وحيث كان البابا يتمتع بنفوذ واسع فى بلاط الغرب[٦٤] .

وكان الغضب قد تملك على ليو الأول كل سبيل من جراء ما أسفرت عنه جلسات مجمع إفسوس الثانى ، حيث رفض ديوسقورس قراءة «رسالة العقيدة» TOMUS التى كان قد بعث بها ليو إلى المجمع . ولهذا شرع مارقيان يدعو الأساقفة لعقد مجمع عام ، عرف بالمجمع المسكونى الرابع ، وشهدته مدينة خلقيدونية Chalcedon فى الثامن من أكتوبر سنة ٤٥١ . وقد اتضح منذ الجلسة الأولى ما كانت تبيته روما والقسطنطينية للنيل من المكانة التى ارتقت إليها كنيسة الاسكندرية على امتداد الصف الأول من القرن الخامس على يد ثيوفيلوس وكيرلس وديوسقورس . وكانت الجلسة الثالثة من جلسات المجمع محاكمة صريحة لأسقفية الإسكندرية فى شخص ديوسقورس ، الذى رفض المثول أمام المجمع فصدر بالتالى ضده قرار الإدانة والعزل . ووقف الاكليروس المصرى وحده يدافع عن قضية إيمانه ومكانة كنيسته .

أدرك جوفنال أن دفة الأحداث تسير الآن فى اتجاه معاكس ، وأن سفينة الاسكندرية وديوسقورس لامحالة غارقة ، ومن ثم أسرع يطلب النجاة ليحقق بعض طموحه ، فأعلن تخليه عن الأسقف السكندرى ، وصدق على إدانته . وكذا — كما يقول المؤرخ « Chadwick » ارتد جوفنال بحركة مسرحية عن موقفه الأول وتمت مكافآته على ذلك باحتفاظه بأسقفيته[٦٥] .

وإن لم يستطع أن يعود إليه حقاً إلا بعد عامين كاملين ، نتيجة الثورات التى اندلعت بين الرهبان فى فلسطين احتجاجا على موقفه هذا . واضطرت

الحكومة إلى استخدام القوة لاخمادها[٦٦] بل لقدذهب المجمع خطوات أبعد من ذلك تجاه كنيسة بيت المقدس ، فأعلن تحريرها من سيادة قيسارية وأمكن التوفيق بين ما كسيموس Maximus الأسقف الأنطاكى ، وجوفنال ، حيث خلع على الأخير منصب البطريرك ومنحت أسقفية بيت المقدس المرتبة الخامسة بين الكنائس الرسولية الكبرى . بشرط أن لايتجاوز سلطانها الرعوى كنائس فلسطين فقط[٦٧] .

وقد عرف هذا الترتيب بالنظام « الخماسى » فى الكنيسة ، وأنه قد اكتمل على هذا النحو بناؤه . وأذاعت الكنائس الخمس أنها رسولية ، على أنه إذا كانت الكراسى الأربعة الأولى (روما — القسطنطينية — الاسكندرية — أنطاكية) تمثل أكثر المدن أهمية فى الامبراطورية ، فإن كنيسة بيت المقدس قد ألحقت بهم فقط على اعتبار أنها المكان الذى انطلقت منه الدعوة المسيحية والموضع الذى شهد معاناة المسيح[٦٨] . وهكذا قنعت كنيسة بيت المقدس بما وصلت إليه ، وإن كان ذلك قد جاء متأخرا (فى القرن الخامس) ، وجاءت هى الأخرى فى نهاية القائمة ، على الرغم من أن كنيسة القسطنطينية ، حديثة العهد بالحياة ، قد أفسحت لنفسها مكانا مرموقاً ، وزاحمت روما والاسكندرية بوحى من الامبراطور وبقرار من رجال الكنيسة فى مجمع مسكونى .

وقد أكد الامبراطور جوستنيان Justinianus I (٥٢٧ — ٥٦٥) الاعتراف بالوضع الجديد لكنيسة بيت المقدس فى «المتجددات» Novellae التى صدرت حول المسائل المتعلقة بالتنظيم الكنسى ، واعتبرت هذا النظام « الخماسى » يمثل الوحدة التامة للكنيسة الكاثوليكية (الجامعة)[٦٩] .

هكذا ألقت كنيسة بيت المقدس أسلحتها الواهنة ، بعد أن حققت بيد الضعف مكانة كانت تسعى إلى غيرها ، وقنعت بأن تعد ضمن الكنائس الرسولية الكبرى ، حتى ولو جاء ترتيبها الخامسة بين تلك اللدات . ولا شك أن الكراسى

الأربعة الأخرى قد هدأت نفساً بإقرارها لهذا الترتيب «الخماسى» . وإن كان فى حلق الاسكندرية غصة بعد أن أزاحتها القسطنطينية سنة ٣٨١ لتحتل مكانها. ولم تغفر الاسكندرية للقسطنطينية هذا التعدى فانتقمت لنفسها خلال الجولات الثلاث على امتداد النصف الأول للقرن الخامس الميلادى . حقيقة ردت للقسطنطينية اعتبارها فى المجمع الخلقيدونى ، وجرعت الاسكندرية كأساً كانت قد ذاقت مرارته ثلاث مرات قبل ذلك . غير أن خسارة القسطنطينية كانت عند نصرها فى خلقيدونية أفدح بكثير لحظة هزيمتها . ذلك أن المناطق الامبراطورية الشرقية فى سوريا وفلسطين ومصر ، أصبحت تموج بحركات العداء الكامن تجاه القسطنطينية ، وذلك نتيجة للسياسة العقائدية التى اتبعتها كنيسة العاصمة والأباطرة تجاه كنائس هذه المناطق بسبب الخلاف المذهبى ، بالإضافة إلى السياسة الاقتصادية المتمثلة فى الضرائب الباهظة التى ألقيت على كواهل الأهلين فى هذه الولايات لمواجهة الأعباء الناجمة عن محاولة الامبراطورية ، خلال عهد جوستنيان ، استعادة الولايات الضائعة فى الغرب ، والتى تساقطت فى أيدى زحوف الجرمان فى نهاية القرن الرابع وعلى امتداد القرن الخامس تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف ، ثم مواجهة الامبراطورية لهجمات عناصر الآفار والصقالبة على البلقان ، ومن ثم بات واضحا أن هذه المناطق الشرقية تشكل خطرا حقيقياً على الامبراطورية ، يتمثل داخليا فى الاضطرابات التى اندلعت فيها لقرنين تاليين ، وخارجياً فى الطموح الفارسى الساسانى الذى يبتغى القفز إلى سواحل البحر المتوسط ، وقد تحقق ذلك بالفعل فى السنوات الأولى من القرن السابع ، ولم يلبث المسلمون بعد ذلك أن أدخلوا هذه المناطق فى دائرة نفوذهم .

من هنا راحت السياسة الامبراطورية تتقلب بين اللين والهوادة ومحاولة الاسترضاء تارة ، والعنف تارات ، وعانت كنائس الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس كثيرا من جراء هذا التقلب . غير أن هذه المحاولات كلها لم تثمر

فى نهاية الأمر . إلا شيئاً واحدا ، هو ضياع هـذه الأقاليم الامبراطورية ضياعا لا رجعة بعده .

وقد ساعد على اشـــتداد حركة العـداء فى فلسطين بالذات ، تجـاه القسطنطينية، ازدياد نمو الحركة الرهبانية فى هذه المنطقة ، وكانت فلسطين — بلا شك — أكثر المناطق تأثرا بالنظام الرهبانى فى مصر ، وبرز من هؤلاء الرهبان فى القرن الرابع القديس هيلاريون Hilarion الذى عاش فى صحراء غزة ، والقديس شاريتون St, Chariton الذى يعزى إليه إقامة سيق [٧٠] . (لافرا Lavra) فاران فى صحراء اليهودية Judaea . وكان هذا النسق من الرهبنة أكثر الأشكال الرهبانية انتشارا فى فلسطين . ويستدل مما كتبه كيرلس السيثوبانى Cyril of Scythopolis فى القرن السادس ، على الانتشار الواسع للحركة الرهبانية وازدياد عدد الرهبان فى فلسطين خلال القرنين الخـامس والسادس [٧١] . ولما كان الرهبان هم أكثر المسيحيين تمسكا بعقيدتهم، وأشدهم تعصبا لمـا هم به يدينون ، كان من الصعب أن تفلح معهم محاولات الحـكومة الامبراطورية لاستمالتهم إلى مذهب آخر غير الذى يقومون على اعتناقه .

وإن كان الرهبان فى فلسطين مع ذلك لا يشكلون قوة حقيقية يمكن أن تعتمد عليها كنيسة بيت المقدس ، إلا فى حالات نادرة ومن ثم افتقدت كنيسة بيت المقدس ما تمتعت به كنيسة الاسكندرية من اعتماد أساقفتها على الرهبان المصريين فى تحديها لسلطان الأباطرة ، إلى جانب أسلحتها الأخرى . حيث كان الرهبان المصريون يشكلون بهراواتهم — كما يقول المؤرخ Budge جيشا قوياً يقلق بال الحـكومة الامبراطورية .

فى عام ٤٨٢ أقدم الامبراطور زينون على إصـدار ما يعرف بقانون الاتحاد Henotikon تضمن موافقته على مراسيم الإيمان الصادرة عن نيقية

والقسطنطينية ومبادىء كيرلس السكندرى ، وإدانته لنسطور ويوطيخا . ولكن المرسوم لم يذكر شيئا عن طبيعة واحدة للمسيح كما يؤمن المنافزة أو طبيعتين كما يعتقد الخلقيدونيون . وكان زينون الذى يبدو وأنه يميل للمونوفيزية — يريد بهذا القانون استرضاء كنائس سوريا وفلسطين ومصر ، غير أن كنيسة بيت المقدس بتأييد من رهبان فلسطين رفضت هذا القانون ، فقد أعلن الرهبان أن هذا القانون لا يتضمن إدانة صريحة للخلقيدونية . غير أن الحكومة لم تكن جادة فى مباشرة تنفيذ هذا القانون وحمل مسيحيى الشرق على الأخذ به ، ومن ثم وقفت موقفاً سلبيا إزاء صيحات الاحتجاج هذه .

وكان الامبراطور أنسطاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١ ٥١٨) الذى خلف زينون أكثر ميلا للمونوفيزية من سلفه ، وأشد رغبة فى استرضاء أهالى الولايات الشرقية ، خاصة وأن أنسطاسيوس لم يكن يبدى اهتماما خاصا بما يجرى فى الغرب الامبراطورى ، الذى راح يقع فى أيدى الجرمان ولاية وراء أخرى ، ومن ثم أولى الشرق ، والمسألة العقيدية جل اهتمامه . وكان يتولى رعاية أسقفية بيت المقدس الياس الذى أظهر ميله فى بادىء الأمر للمعتقد الخليقيدونى ثم أعلن انحيازه له صراحة بعد ذلك . ويبدو أن الياس ، الذى أمضى أسقفاً لبيت المقدس ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة (٤٩٤ — ٥١٦) ، قد تمكن من استمالة مجموعة كبيرة من الرهبان فى فلسطين الى جانب الطبيعتين فى المسيح ، بحيث تحولوا على هذا النحو إلى الجانب المضاد تماماً . وقد ظهر ذلك واضحاً عندما أخذ الامبراطور فى السنة العشرين من حكمه يعلن جهارا ميله للمونوفيزية ويعزل أساقفة الخلقيدونية[٧٢] وإن كان قد اصطبر على الياس حتى عام ٥١٦ حيث أصدر قرار عزله ونفيه نتيجة لما يعلمه من نجاحه فى تحويل نفر كبير من الرهبان إلى الخلقيدونية ومناصرة هؤلاء له . ومن ثم فقد لقى صعوبة بالغة فى فرض إرادته هنا ؛ ذلك أن يوحنا ، الذى كان أحد شمامسة الياس واختير من قبل السلطات الامبراطورية خلفاً لأستاذه ، كان عليه أن يعلن جهاراً إنزال اللعنة

على المجمع الخلقيدوني ، وقد فعل . فلما كان يوم رسامته لمنصب الأسقفية ، أحاط به عشرة آلاف راهب فلم يجد من سبيل إلا أن يصرح علانية ساعتها تمسكه بقانون الإيمان الخلقيدوني . وكان قائد حامية فلسطين على قدر كبير من الذكاء أدرك به أنه من الأفضل أن ينسحب بقواته بهدوء دون تدخل من جانبه ، كما كانت تقضي الأوامر الامبراطورية . فقد أبصر العواقب الوخيمة التي يمكن أن تؤدي اليها مثل هذه المواجهة بين قواته وجيش الرهبان .

وقد عاشت كنيسة بيت المقدس ، شأن الكنائس الأخرى في الامبراطورية ، فترة قلقة يسودها التوتر والاضطراب خلال العهد الطويل للامبراطور جوستنيان Justinianus I (٥٢٧ – ٥٦٥) — فقد كان قلب الامبراطور يهوى الغرب ، ولكن بصره كان معلقاً بالشرق ، يروم استعادة — الولايات الامبراطورية في النصف الغربي ، ويسعى لحماية ولايات الشطر الشرقي من الخطر الفارسي . وبين قلب الامبراطور وبصره ، تأرجحت في العقيدة سياسته ومن ثم كانت العقيدة عنده تسير في ركاب الجيش ، يقلب الامبراطور بين كفيه كنائس الامبراطورية حسبما تقضي بذلك مصلحته السياسية ومتطلباته العسكرية[٧٣] . وقد أظهر جوستنيان في السنوات الأولى من حكمه ، ميلا تجاه المنافزة ، حيث كانت الجيوش تحارب الفرس على جبهة الفرات ، ولهذا كان حريصاً على استرضاء أهالي الولايات الشرقية حتى يضمن هدوء الجبهة الداخلية . هذا بالإضافة إلى أن زوجه ثيودورا كانت تبدي تعاطفاً طبيعياً مع المونوفيزية . ولما أمن جبهة فارس بمعاهدة سلام اشتراها ، ونقل قواته للغرب محارباً محاولا استرداد أفريقيا وإيطاليا ، أدار للطبيعة الواحدة في المسيح واتباعها ظهره ، وولى وجهه شطر روما الخلقيدونية يطلب ودها . وعلى هذا النحو تعرضت الكنائس للكثير من مظاهر تدخل الدولة في عزل أساقفتها وتعيين غيرهم تبعاً للمصلحة السياسية . وإن كان هذا لا يعني أن — الامبراطور لم يكن راغبا حقيقة في التوصل إلى صيغة واحدة للإيمان تجتمع عليها أمبراطوريته .

غير أن كنيسة بيت المقدس تعرضت لهزة عنيفة إبان عهده ، من جراء الصراع الذى نشب من جديد حول فكر الفيلسوف واللاهوتى السكندرى أوريجن . واشتد أواره بفعل اشتراك مشقى الرهبان فيه . وزاد الأمر حدة أن أفاجريوس Evagrius الذى كان رئيس الشمامسة فى القسطنطينية ، قد غادر العاصمة واتجه إلى بيت المقدس ، وراح يبشر وجهة نظره المؤيدة للاوريجنية . وساعده فى ذلك اللافرا الجديدة التى كانت قد أقيمت فى صحراء اليهودية Judaea أصبحت تمثل مركز الفكر الأوريجنى فى فلسطين . وعلى الرغم من أن أفاجريوس قد غادر بيت المقدس إلى الصحراء المصرية لإعجابه بالحياة الديرانية هناك ، إلا أن حدة الجدال لم تنته ، مما دفع الامبراطور جوستنيان أن يصدر فى سنة ٥٤٣ مرسوما مطولا يدين فيه الأوريجنية ، وليعود بعد ذلك بعشر سنوات ، يؤكد هذه الإدانة فى المجمع المسكونى الخامس الذى شهدته القسطنطينية سنة ٥٥٣ ، وليشرك فى اللعنة مع أوريجن ، أفاجريوس وديدوموس الضرير الذى كان رئيسا لمدرسة اللاهوت السكندرى فى أواخر القرن الرابع .

ويموت جوستنيان ، دخلت الامبراطورية فى طور من الضعف امتد قرابة نصف قرن من الزمان (٥٦٥ — ٦١٠) ، ورغم أن بعض أباطرة هذه الفترة مثل الامبراطور موريس Mauricius (٥٨٢—٦٠٢) قد حاول جاهدا الحفاظ على كيان الامبراطورية ، إلا أن الأحداث الخارجية التى عاجلت الامبراطورية بضرباتها عند الدانوب وعلى الفرات ، كانت أقوى من جهود خلفه فوقاس Phocas الذى يعد عهده (٦٠٢ — ٦١٠) من أسوأ الفترات فى تاريخ الامبراطورية .

انتهز الفرس فرصة الضعف الذى تردد فيه الامبراطورية ، والفتنة الداخلية التى رفعت فوقاس إلى العرش[٧٤] . ووجهوا جيوشهم نحو الولايات الشرقية للامبراطورية ، لتحقيق حلمهم الذى كانوا يطمحون إليه منذ زمن بعيد ، بالوصول

إلى شواطىء البحر المتوسط الذى كان يمثل مركز الثقافة والحضارة آنذاك . واستطاعوا فى سنوات قليلة الاستيلاء على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، ووقفت جيوشهم على الشاطىء الآسيوى للبسفور قبالة القسطنطينية، ولم يستطع الامبراطور هرقل Heraclius حتى السنة الخامسة عشرة من حكمه (٦٢٥) أن يتصدى لهذا الزحف .

وقد تعرضت بيت المقدس للتخريب على يد الفرس ، فقد نهبت الكنائس ، وجردت كنيسة القبر المقدس من كنوزها وأشعلت فيها النيران ونقلت كثير من النفائس التى كانت تزدان بها المدينة ودور العبادة المسيحية إلى المدائن Ctesiphon ، ونقل معها أيضاً صليب الصليوت الذى قيل ـ كما أسلفنا ـ أن رحلة هيلانة والدة قسطنطين استهدفته وتم العثور عليه . هذا بالإضافة إلى عدد من الأسرى كان فى مقدمتهم زكريا Zacharia أسقف كنيسة بيت المقدس . ولم يأت عام ٦١٨ حتى كانت مصر هى الأخرى قد سقطت فى أيدى الفرس . هكذا فقدت الامبراطورية كل ولاياتها الشرقية . وكان الآفار فى الوقت ذاته قد عاثوا فى البلقان فسادا ، وألقوا على القسطنطينية حصارهم . وهكذا لم يبق من بيزنطة الامبراطورية إلا بيزنطة المدينة !!

غير أن الامبراطور هرقل ، تشاركه الكنيسة ، بذل جهودا كبيرة فى سبيل استعادة هذه الولايات الضائعة ، وفى ديسمبر سنة ٦٢٧ حقق هرقل نصره الكبير ، وقدر أن تشهد نهاية العام خاتمة الصراع بين الامبراطورية وفارس . وعند أطلال نينوى ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، بعد أن سجلت آخر سطور ملحمة الصراع الطويلة بين الفريقين . ولم نسمع مرة فى التاريخ البيزنطى عن حرب خاضتها الامبراطورية ضد فارس ، لا لأن بيزنطة كانت قد كالت لعدوها الكثير . . ولكن لأن دولة الفرس سرعان ما زالت تماماً بعد ذلك بضع سنين على يد المسلمين .

وعاد هرقل إلى عاصمته تحفه أكاليل الغار وزهو الانتصار ، يحمل إلى شعب القسطنطينية صليب الصلبوت ، الذى طيف به أمام مذبح أياصوفيا . وفى سنة ٦٣٠ ارتحل الامبراطور وزوجته مارتينا Martina قاصدين بيت المقدس، حيث أعيد الصليب - فى احتفال مهيب إلى سابق مكانة[٧٥] .

ولا شك أن هرقل كان يدرك تماماً الأسباب الحقيقية لضياع هذه الولايات على هذا النحو من السرعة ، واتخاذ الأهلين فيها موقف السلبية تجاه هذا الغزو الفارسى . (وسوف يتكرر هذا المشهد ثانية إلى حد كبير أمام حركة الفتوح الإسلامية الأولى) ، نتيجة ضجرهم ونقمتهم على القسطنطينية لسياستها العقيدية المخالفة لهم ، والمتعنتة فى معاملتهم . غير أن هرقل عندما حاول معالجة هذه الناحية ، لم يخرج عن السبل التى رسمها أسلافه من قبل ، وهى محاولة التوفيق بين أصحاب الطبيعة الواحدة المنافزة ، وأصحاب الطبيعتين الخلقيدونيين ، وهى سياسة أثبتت على مر القرون فشلها بسبب الخلاف الجذرى العقيدى بين هؤلاء وأولئك . والأحقاد الدفينة منذ سنى الاصطراع استباقاً من أجل الزعامة الكنسية . إلا أن هرقل كان يحدوه الأمل فى إتمام الوحدة الكنسية حتى يضفى على نصره العسكرى شيئاً من قداسة ، خاصة وأن البدايات هيأت له بعض التفاؤل .

فقد انتهز الامبراطور فرصة وجوده على رأس حملاته العسكرية فى حرب فارس ، وراح يتفاوض مع أساقفة بعض الكنائس الواقعة فى دائرة عملياته العسكرية ، ونعنى بذلك بولس الأسقف الأرمنى ، وذلك فى عام ٦٢٣، وأبدى راعى الأرمن هنا ارتياحه لرغبة الامبراطور فى توحيد الكنيسة . وكذلك قيرس Cyrus أسقف فاسيس Phasis فى بلاد الأكراد ، واثناسيوس الجمال أسقف أنطاكية . ولعب البطريرك سرجيوس أسقف القسطنطينية دوراً كبيراً فى محاولة استمالة عدد من رجال الإكليروس إلى الدعوة الجديدة التى ابتدعها الامبراطور .

ولما أعجب هرقل بلباقة قيرس واندفاعه فى تأييد الامبراطور وآرائه ، عينه أسقفاً على الإسكندرية .

أذاع هرقل بيان إيمانه Ecthesis سنة ٦٣٨ بعد أن اطمأن إلى رضاء عدد من أساقفته عنه ، وتضمن هذا المرسوم القول بالطبيعتين فى المسيح حسبما أقر الإيمان الخلقيدونى ، وأضاف القول بالمشيئة أو الإرادة الواحدة (Thelima). ومن هذه الكلمة اليونانية اشتق مصطلح المونوثلية[٧٦] Mon Monotheletism وتولى سرجيوس مسألة الصياغة اللاهوتية لهذا المرسوم العقيدى الجديد الذى كان يبغى فى ظاهره التوفيق بين أنصار المذهب الخلقيدونى ، وأصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية). وعلى الرغم من أن البابا هونوريوس الأول Honorius I اعترف بخطورة كل المناقشات التى تثور حول المشاكل العقيدية التى لم تقرها المجامع المسكونية ، فقد أعلن صحة التعاليم القائلة بإرادة واحدة .

غير أن كنائس الولايات الشرقية رفضت الاعتراف بهذه البدعة الجديدة، وقاد البطريرك السكندرى بنيامين حملة المعارضة فى مصر ضد الأسقف الامبراطورى (الملكانى) قيرس . أما كنيسة بيت المقدس فقد علا صوتها بالاحتجاج الصارخ على هذا التشويه للعقيدة المسيحية ، وكان بطريركها صفرونيوس Sophronius الراهب الفلسطينى ، وتلميذ الإسكندرية، أشد رجال الاكليروس تحدياً للمونوثلية التى اعتبرها صورة ممسوخة من مذهب الطبيعة الواحدة وشكلا فاسداً للايمان الخلقيدونى . وكتب رسالة مجمعية إلى أسقف القسطنطينية ناقش فيها بمهارة واضحة وذكاء عدم قوامة التعاليم المونوثلية . وكان فشل كل الجهود الدبلوماسية التى بذلها الامبراطور وأسقفه سرجيوس أمام المقاومة العنيدة التى أبداها صفرونيوس ، دافعاً حمل هرقل على اتباع سياسة العنف بغية تحقيق أهدافه . غير أن هذه السياسة لقيت هى الأخرى فشلا ذريعاً، وكان عاقبة أمرها خسراً ، إذ لم يمض على ذلك أشهر قلائل حتى كان المسلمون

قد أخضعوا هذه المناطق لسلطانهم . ويعلق المؤرخ بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » على ذلك بقوله « . . . لقد كان رأى الامبراطور فى القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به ، رأيا بعث به الخيال والوهم . فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدىء العواصف الثائرة من الخلاف فى المذاهب ، فما كان منه إلا أن ازداد العاصفة هياجا ، ولم يستطع الصبر على الخيبة ، ولم يرض أن يدع الأمور إلى الزمن ويلزم جانب الاعتدال ، فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام ، فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطلع جنود الإسلام » .

هكذا رأينا كيف عاشت كنيسة بيت المقدس تعانى لفترة طويلة أوجاع اضطهاد نبيل خصتها به قريناتها . . روما والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية لتضمن بقاءها فى مرتبة دنيا ، تقصر هامتها دون رقاب تلك الأسقفيات ، وأولاء اللدات تعلم علم اليقين أنه لو أتيحت لكنيسة بيت المقدس الفرصة فى منافسة عادلة ، لعلت برصيدها الروحى ، فقط ، والذى لا تمتلك سواه ، سمت رفعة وفخار يفوق ما كان لهؤلاء جميعاً من ماض وثنى تتباهى به روما ، وحاضر تزهو به القسطنطينية ، أو فكر فلسفى تتعالى به الإسكندرية وأنطاكية . وليس غريباً أن يشارك الأباطرة أساقفتهم هذا السبيل ، فإذا كان الامبراطور هو الكاهن الأعظم فى الوثنية ، فقد أصبح الآن الأسقف الأعلى فى المسيحية ، ورأس الكنيسة ، يعين الأساقفة ويعزلهم ، ويدعو لعقد المجامع الكنسية العالمية ، وحتى المحلية ويترأس جلساتها ويصدق على قراراتها ، ويتدخل فى أمر العقيدة والتنظيمات الكنسية . ويكفى أن نقف على سياسة قسطنطين إزاء المسيحية ، أو متجددات جستنيان ، لنعلم إلى أى حد بلغ سلطان الأباطرة على الكنيسة . ومن ثم كان من اللائق بل من الضرورى أن تحتل أسقفية العاصمة المرتبة اللائقة بها . ولكى يصاغ الترتيب الذى عمدت إليه هذه الكنائس فى قالب مقدس ، أصبح من سلطة المجامع الكنسية ، حتى المحلية منها أن تصدر قوانينها بأسبقية

هذا الكرسى الأسقفى أو ذاك . على هذا النحو سار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ والقسطنطينية سنة ٣٨١ وخلقيدونية سنة ٤٥١ . بل وأيضا مجمع التدشين الذى عقد فى أنطاكية سنة ٣٤١ ، حيث نص القانون التاسع على إضفاء المرتبة الأولى على الأساقفة الذين يرعون كنائس عواصم الولايات[٧٧] . ووسط متاهات الكريستولوجية السحيقة التى تفرقت بها السبل فى القرن الخامس الميلادى لهثت الكراسى التى عدت نفسها رسولية وتقطعت أنفسها جريا وراء مركز للزعامة مرموق فى عالم المسيحية مستترة برداء تنثره فى وجه الخصوم ، هو الدفاع عن لاهوت المسيح عند نفر ، وناسوته عند آخر .. وعن هذا وذاك عند ثالث .

وتركت الظروف الخاصة بكنيسة بيت المقدس أيضاً بصماتها على موقع هذه الكنيسة . فافتقدت القوة الرهبانية التى يمكن أن تجد فيها سنداً ومعيناً يحمى ظهرها فى مواجهة السلطة الامبراطورية ، وهى القوة التى فازت بها كنيسة الاسكندرية ، وعرف أساقفتها كيف يفيدون منها إلى أقصى حد . كما أن أحدا من الشخصيات القوية لم تحظ به كنيسة بيت المقدس أسقفاً لها ، يمكن أن يجهر بحق الكنيسة فى مرتبة متقدمة ، بل شغل أساقفتها ، حتى ذوى السمعة منهم وهم قليلون ، برفع عقيرتهم بالشكوى من خضوعهم لقيسارية ، فلما آنست الكنائس الرسولية من نفسها قوة ، سمحت لكنيسة بيت المقدس أن تلحق فى النهاية بركب قافلة الكراسى الأربعة الكبار ، وتنزل المنزلة الخامسة .

وقد يقال أن هذا التنظيم «الخماسى» لا يعنى ترتيب مكانة . صعوداً إلى روما أو نزولا إلى بيت المقدس . فالكل فى حق الأخوة والرفعة سواء . وإذا جاز أن يصدق هذا القول من الناحية النظرية وحدها ، فإن الواقع العملى بالصورة التى جرى بها فى القرن الخامس يرفض هذا الادعاء ويدحضه . ولعل المحاكمة الشهيرة التى جرت للأسقف السكندرى ديوسقورس فى المجمع الخلقيدونى ، والإهانات التى وجهت إليه ، وبلغت حسب رواية بعض المصادر إلى حد الاعتداء خير شاهد على ما نذهب إليه ، وحسبنا ما قاله أسقف سلوقية أمام هذا المجمع

دليلا مؤكداً ، يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الأساقفة إلى المنفى بسببه.. ويدعى هذا القديس أنه يدافع عن العقيدة الحقة . غير أنه يعتبر شخصه فوق الله وفوق رسل روما والقسطنطينية وأنطاكية وجميع الأساقفة الآخرين .. فإذا هزمت الإسكندرية وقضى ديوسقورس نحبه ،فان يظل العالم بلا أسقف»!!

والأسقف السلوقى بقوله هـذا يعبر بصراحة مفرطة عن هـذا الصراع الرهيب الذى دار بين الكنائس من أجل الزعامة،ويخص بالذكر عمداً ذلك الصراع : روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية ويجعل بيت المقدس فى زمرة «الأساقفة الآخرين» الذين يتعالى عليهم جميعاً أسقف الاسكندرية .

وقد قنعت كنيسة بيت المقدس بما حققته فى منتصف القرن الخامس ، وأكده جوستنيان فى القرن السادس . ورضيت بقدرها ذاك . حتى كان عام ٦٣٨ عندما فتح المسلمون فلسطين ، وسلم صفرونيوس بيت المقدس بنفسه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لتبدأ كنيسة البيت المقدس بذلك رحلة جديدة فى تاريخها عبر العصور الوسطى .

الحواشى

(١) عن ارواقية انظر : دكتور عثمان أمين : الفلسفة الرواقية . وراجع أيضا :

Cary; A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588.

ويقول ول ديورنت : ان فكرة المسيح الاله قد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية .. ومن ثم كان فى وسع العلم الوثنى أن يحتضنها ويرضى بها . ان المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها . ذلك ان العقل اليونانى المحتضر عاد الى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان على السياسة ، أداة الآداب والطقوس المسيحية (قصة الحضارة : المجلد الثالث الجزء الثالث . ص ٢٧٥ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن فلسفة القديس توماس الاكوينى انظر :

Knowles : The evolution of Medieval Thought, pp. 255-268; De Wulf : Philosophy and civilization in the Middle Ages, p. 81 sqq; Dawson : Religion and the rise of Western Culture, p. 171 sqq. Hughes : A history of the Church, vol. 2 pp. 423-434.

وراجع أيضا دكتور حسن حنفى حسين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى : أوغسطين انسلم . توماس الاكوينى . — وكذلك يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط . — وأيضا عبده فراج : معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى .

(٣) عن أوريجن السكندرى والأوريجنية انظر :

EVSEB. hist. eccl. VI, 2-4, 8, 16, 19, 23, 24, 27, 30, 32, 34, 39. Shiel : Greek thought and the rise of Christianity, Copleston : A history of Philosophy, vol. 2- Mediaeval Philosophy, part I Ware. The Orthodox Church, 72-73; Chadwick, the Early Church, 100-114, 184-9, 209-210, 215.

(٤) كا نمن البدهى أن تنتشر دعوة اريوس السكندرى القائلة بخلق المسيح ، وتلاقى رواجا كبيرا فى الأوساط السورية ومنطقة آسيا الصغرى التي برز فيها تأثير المدرسة الانطاكية العقلانية ، دون أن تحظى دعوته بمثل

هذا الرواج فى الاسكندرية التى ينتمى اليها ومن الجدير بالذكر أن أريوس تلقى تعليمه اللاهوتى فى مدرسة انطاكية ، وكان زميلا ليوساب Eusebius أسقف نيقوميديا الذى تولى زعامة الفريق الأريوسى بعد وفاة أريوس سنة ٣٣٦ ، حتى لقد أصبح من المألوف القول بأن المدرسة الانطاكية هى موطن المعتقد الاريوسى ، وان لوسيان رأس هذه الكنيسة ، هو الأريوسى قبل اريوس نفسه . ويصفه شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية . انظر :

EVSEB. hist. eccl. VIII. 13 ; IX. 6. Hier : Vir. ill. 77; Knowles, op. cit., pp. 3-15; Lietzmann : From Constantine to Julian, a history of the early Church, p. 107; Downey : A History of the Byzantine Empire, I. p. 55; Dictionaire de Théologie Catholique, vol. I art Arian. A Dictionary of Christian Biography, vol. I. art Arian.

وراجع للباحث : الدولة والكنيسة ، الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٥) انقضى وقت طويل قبل أن يجذب المسيحيون ـــ كطائفة جديدة ـــ نظر السلطة الامبراطورية ، ذلك ان الحكومة الرومانية ظلت لفترة ليست بالقصيرة تنظر الى المسيحيين باعتبارهم طائفة من اليهود انظر :

Painter, A history of the Middle Ages, 284-1500, p. 13.

(٦) انظر :

Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 395, Chadwick, op. cit. pp. 21-22.

(٧) انظر : EVSEB. hist. eccl. III. 33, IV. 9.

(٨،٩) يتضمن كتاب التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica الذى وضعه يوساب القيسارى ثبتا كاملا بأسماء رجال الاكليروس واساقفة الكنيسة الذين لقوا مصرعهم على امتداد القرون الثلاثة الأولى ومطلع القرن الرابع للميلاد ، هذا بالاضافة الى ما ذكرناه بالمتن عن الفصل الخاص بشهداء فلسطين . انظر :

Hist. eccl. II. 23, 25. III. 27, 32, IV, 16; V. 1, 21; VI. 1, 28, 39 VII. 1, 10, 12, 15, 32, VIII. 1-13; IX. 6-8.

أما لاكتانتيوس فقد ترك رسالة « عن موت المضطهدين » De Mortibus persecutorum تحدث فيها تفصيلا عن الأساليب العنيفة التى اتبعها الأباطرة الرومان فى اضطهاد المسيحيين وأوضح بأسلوب تراجيدى ساخر فى الوقت ذاته النهايات المحتومة التى تعرض لها هؤلاء الأباطرة الوثنيون المضطهدون .

(١٠) عن الأسباب التى دعت الى عقد هـذا المجمع والظروف التى أحاطت به ، وقراراته والرسـالة التى بعث بها الرسـل منه الى مختلف الكنائس .. راجع أعمال الرسل ١٥ وأيضا :

Bullough, Roman Catholicism, p. 163; Ware : The Orthodox Church, p. 24.

(١١) عرفت الكنيسة منذ تاريخها المبكر المجامع المحلية أو المكانية وهى التى تعقد فى عاصمة الأقليم تحت زعامة الكنائس التى حظى أساقفتها بمرتبة المطرانية ، وكانت روما والاسكندرية وانطاكية فى مقدمة هذه الكراسى . وقد ساعدت السياسة العدائية التى اتبعتها الدولة الرومانية الوثنية تجاه المسيحية على تعميد هذا الاتجاه ، فقد كانت الامبراطورية تنظر الى المسيحية نظرة كلية ، ولم يكن يعنيها أمر الخلاف العقيدى الذى انتشر بين المسيحيين وأنفسهم منذ القرن الأول ، والذى كانت تعالجه هذه المجامع المحلية . فلما مالت الدولة الى المسيحية بعد ذلك زمن قسطنطين ، ثم أصبحت هى عقيدتها الرسمية زمن ثودوسيوس الأول فى آخريات القرن الرابع ، وارتبطت الكنيسة بالدولة ارتباطا وثيقا ـ كما يذكر مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس .. سقراط ـ استن قسطنطين لخلفائه سنة عقد المجامع المسكونية التى بلغت سبعة مجامع فى الكنيسة الشرقية ما بين عامى ٣٢٥ ، ٧٨٧ .

(١٢) انظر : EVSEB; hist. eccl. V. 23.

(١٣) للوقوف على آراء المؤرخين ، القدامى والمحدثين والمناقشات التى دارت حول « مسيحية قسطنطين ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة . الجزء الأول . الفصل الثالث .

(١٤) يتحدث يوساب القيسارى باسهاب كامل عن تشييد كنيسة القيامة ، ويصفها وصفا دقيقا ، ومدى تفوقها على سائر الكنائس الأخرى فى العالم المسيحى ، والرسائل التى بعث بها قسطنطين الى عماله فى الولايات والأسقف مكاريوس يحدثهم فيها عن بناء هذه الكنيسة واعتزازه بها

EVSEB, Vita Const. III. 42-46.

(١٥) انظر للمزيد من التفاصيل عن هذه الرحلة :

EVSEB. Vita. Const. III. 42-46. Sozom. hist. eccl. II. 2; Socrat. hist. eccl. I. 17.

(١٦) يذكر يوساب القيسارى Hist. eccl. VI. 11 ان أول حاج الى بيت المقدس الأسقف الكبادوكى اسكندر فى عام ٢١٢ .

(١٧) انظر :

Ware, The Orthodox Church, p. 145.

(١٨) عقب صدور قرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بادانة الاريوسية ، واعدام العمل الذى وضعه اريوس والمسمى Thalia ، والذى يتضمن فكر اريوس والمبادىء الاريوسية الأصلية ، أصبح المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى معرفة حقائق المعتقد الاريوسى ، هى كتابات أساقفة النيقية وهى بطبيعتها ما جاء فى الثاليا هذه من كتابات اثناسيوس أسقف الاسكندرية (٣٢٨ ــ ٣٧٣) والد أعداء الاريوسية ، وكذلك من الشذرات المتفرقة التى خلفها مؤرخو الكنيسة المعاصرون . انظر :

Athanas. Orat. C. Arian. I-IV, depos. Ar., de decr. III. 6. Sozom. hist. Eccl. I, 15; Theod. Hist. eccl. I, 3, 4, 5. Dictionary of Christian Biography, Art. Arianism. Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. I. Art. Arianism.

(١٩) انظر : THEOD. hist. eccl. I, 4.

(٢٠) انظر :

Socrat. hist. eccl. II. 8; Sozm. hist. eccl. III. 5.
Hefele, History of the Councils, II. pp. 56-82.

(٢١) انظر :

EVSEB. Vita Const. IV. 43; Socr. hist. eccl. I. 33; Sozom. hist. eccl. II. 27; Theod. hist. eccl. I. 28-29. Hefele, op. cit. II. p. 26.

(٢٢) تم نفى اريوس وصحبه الى الليريا بعد أن أدينت الاريوسية فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ غير أنه لم تمض على ذلك ثلاث سنوات ، حتى كان الامبراطور قد أصدر أوامره بالعفو عن يوساب النيقو ميدى وثيوجنس أسقف نيقية ، المؤيدين لاريوس ، وعودتهما الى كنيستيهما ، كما دارت المراسلات بين قسطنطين واريوس ، وعاد اريوس ويوزيوس الى القسطنطينية بعد تدشينها فى عام ٣٣٠ وقدما للامبراطور وثيقة ايمان عدها قسطنطين « قويمة » ، رغم انها جاءت غامضة بل وخالية تماما مما تضمنه قانون الايمان النيقى ، خاصة عبارتى « مساو للاب فى الجوهر » Homoousius « ومولود قانون مخلوق » الا أن الامبراطور رغبة منه فى احلال السلام ،

وفى الوقت ذاته لعدم وعيه بحقيقة المسائل اللاهوتية « صدق على هذه الوثيقة ، دون الرجوع الى رأى الاكليروس ، بعد أن سلمت له الكنيسة فى جدتها بالتدخل فى أدق ما يتعلق بشئونها الداخلية . انظر نص وثيقة الايمان الخاصة باريوس ويوزيوس فى SOCR. hist. eccl. I. 26.

(٢٣) انظر :
EVSEB. Vita. Const. III. 3; Socr. hist. eccl. I. 9.

(٢٤) تناول الباحث بالتفصيل كل هذه الأحداث فى كتابه : الدولة والكنيسة . الجزء الثانى اثناسيوس .

(٢٥) راجع كل هذه المجامع بالتفصيل فى الجزء الثانى من الدولة والكنيسة للباحث .

(٢٦) انظر :
SOCR. hist. eccl. II. 20, 23, SOZOM. hist. eccl. III. 11
THEOD. hist. eccl. II. 6, Hefele, op. cit. pp. 86-176.

(٢٧) انظر :
SOCR. hist. eccl. II. 24. SOZOM. hist. eccl. III. 22.
ATHANAS, hist. Arian. 25, apol. C. Arianos, 57. Hefele, op. cit. II. p. 184.

(٢٨) انظر :
SOCR. Hist. Eccl. II. 24, 8.
GENN. de vir. ill. c. 17.

(٢٩) انظر :
Hefele, op. cit. II. pp. 418-419.
وكان روفينوس من أشد الناس تحمسا لاوريجن والاوريجينية . وقام بترجمة عدد من أعماله الى اللاتينية ، وكان هذا كافيا لاتهامه بالهرطقة من جانب أصدقاء جيروم الذين كانوا يقيمون فى روما ، هذا بالاضافة الى أن ثيوفيلوس أسقف الاسكندرية كتب الى انسطاسيوس الأول ، أسقف روما (٣٩٩ — ٤١٠) يوضح له هرطقة أوريجن ، ويبين له ضرورة ادانة روفينوس . لان ذلك يتضمن بالتالى الادانة لاوريجن نفسه . وقد كتب روفينوس دفاعا عن نفسه قدمه الى البابا انسطاسيوس سنة ٤٠٠ ذكر فيه ان ايمانه يتفق مع ما بشرت به كتب بيت المقدس . انظر دفاعه عن نفسه ورسالة أسقف روما الى يوحنا أسقف بيت المقدس ودفاعه عن اوريجين وجداله مع جيروم ورد هذا عليه فى
Nicene and post Nicene Fathers, vol. III pp. 420-541.
وللمزيد من التفاصيل عن الجدل حول الاوريجينية . انظر :
Chadwick, op. cit. pp. 209-210.

(٣٠) لم يعدم أوريجن المدافعين عنه ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى ، وديديموس Didymus الضرير ، الذى كان من اشهر مثقفى عصره ، وكان آخر من تولى رئاسة مدرسة اللاهوت السكندرى . ثم يأتى بعد ذلك آباء اللاهوت الكبادوكيون الثلاثة ، جريجورى النازيانزى وجريجورى القيسارى وباسليوس أسقف قيسارية الكبادوك ، وروفينوس المؤرخ الكنسى . أما الأسقف السكندرى اثناسيوس ، فقد كان يقف الى جانب أوريجن وان كان بشىء من التحفظ .

(٣١) للمزيد من التفاصيل عن البلاجية وردود الكنيسة عليها انظر :

Encyclopaedia of Religion and Ethics, art. Pelagianism The Catholic Encyclopedia, art. Pelag.

The new Schaff-Herzog Encyclopedia of Religious Knowledge, art. Pelag. Leff, Medieval thought from St. Augustine to Ockham, pp. 52-54.

(٣٢) ومن المعروف ان المشكلة البلاجية انتقلت بعد ذلك بالفعل الى الغرب فعقد مجمعان كنسيان فى قرطاجة وميلفى Melevis فى نوميديا فى عام ٤١٦ ، أعادا من جديد ادانة البلاجية فى شخص كايلستوس تلميذ بلاجيوس ، ثم رفعوا الأمر الى البابا انوسنت الأول بالاضافة الى ما بعث به اليه يوحنا أسقف بيت المقدس ، وقد سعد انوسنت الثالث بالنغمة التى خاطبه بها رجال الاكليروس فى أفريقيا ونوميديا ، فأظهر ارتياحه لادانة بلاجيوس . غير أن البابا زوسيموس ZOSIMUS أعاد من جديد نظر القضية وأعلن براءة بلاجيوس . غير انه اضطر الى التراجع عن رأيه فيما بعد حيث أدينت البلاجية من جانب الكنيسة والدولة . للمزيد من التفاصيل عن مجمعى بيت المقدس واللد ، والدور الذى لعبه يوحنا ، وما تبع ذلك من احداث .. انظر :

Jones, Later Roman Empire, vol. I, 209; Hefele, op. cit. Vol. II pp. 448-454.

Hughes, A history of the Church, vol. II, pp. 13-18.

Laistner, Thought and letters in Western Europe, pp. 61-63.

Leff, Medieval thought from St. Augustine to Ockham, pp. 52-54.

(٣٣) راجع رسالة روما ١٥/١٩ :

EVSEB, hist. eccl. II. 14. III. 4; VI. 25.
HIER. de vir. ill. c. I.

(٣٤) انظر : Ware, op. cit. p. 30.

(٣٥) انظر : EVSEB. hist. eccl. V. 8, 11.

F. Jackson : The history of the Christian Church from the Earliest times to the death of St. Leo the Great. pp. 269-270. CMH. vol. IV. part 2. pp. 57, 244, 265, 267. Vasiliev, A history of Byzantine Empire, vol. I p. 45.

Latourette : Expansion of Christianity, vol. I. p. 348.

وللمزيد من التفاصيل عن مدرسة الاسكندرية انظر للباحث الدولة والكنيسة : الجزء الثانى الفصل الأول .

(٣٦) انظر :

Creed ; Egypt and the Christian Church (in Legacy of Egypt) p. 300.

(٣٧) انظر رسالة بطرس الأول ٥/١٣

EVSEB. hist. eccl. II. 15, 16.
HIER. de vir. ill. c. 1, 8.

(٣٨) انظر : SOCR. hist. eccl. III, 1, 17; VI, 3.
Sozom. Hist. Eccl. VI. 17. VIII. 2.
THEOD. hist. eccl. III. 17.

(٣٩) انظر أعمال الرسل ١١/٢٠ ، ٢٦

EVSEB. hist. eccl. II. 1.
HIER. de vir. ill. c. I.
CMH. vol. IV. part. 2 pp. 212-214.
Vasiliev. op. cit. I. p. 116.

(٤٠) انتشرت المسيحية الاريوسية بين القبائل الجرمانية — عدا الفرنجة — فى أوائل الأربعينيات من القرن الرابع ، حيث كان أحد رجال الدين فيهم وهو أولفيلا Ulfilas حاضرا لمجمع التدشين الذى عقد فى انطاكية سنة ٣٤١ وهو يعد من أشهر المجامع التى عقدها الاريوسيون فى عهد الامبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ — ٣٦١) . وأكد ذلك أيضا بتقبله لرسوم الايمان الاريوسى الصادر عن مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ . والذى أقر فى نيقا Nice فى نفس العام ثم القسطنطينية سنة ٣٦٠ . انظر :
THEOD, hist. eccl. IV. 33.
SOCR. hist. eccl. II. 41; IV. 33.
SOZOM. hist. eccl. IV. 24; VI. 37.

وراجع للباحث : العالم البيزنطى (ترجمة) ص ١٠٠ حاشية ١ .

(٤١) انظر : يوحنا ١/٤٠ — ٤٢

EVSEB. hist. eccl. III. 1.
HIER. de vir. ill. c. 7.
Nicene and post-Nicene Fathers, vol. I. p. 132 n. 3, 4.
Hussey : The Byzantine World, p. 17.

وقارن للباحث الترجمة العربية لهذا الكتاب حاشية ١ ص ١٠٧ و ١٠٨
Baynes & Moss : Byzantium, p. 128.

(٤٢) انظر رسالة غلاطية ١/١٩ :

EVSEB. hist. eccl. II. 1.
HIER, de vir. ill. c. 2.
Nicene and post-Nicene Fathers, vol. I. pp. 99 n. 14.

(٤٣) انظر أعمال الرسل ١/٢٣ — ٢٦ ، ١/٦ — ٧ .
EVSEB. hist. eccl. II. 1.
Bainton : History of Christianity, vol. I p. 86.

(٤٤) انظر أعمال الرسل ١٥ .

(٤٥) « واما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعا فهى حرة » (غلاطية ٤/٢٦) .
« بل قد أتيتم الى جبل صهيون والى مدينة الله الحى أورشليم السماوية ، والى ربوات هم محفل ملائكة وكنيسة ابكار مكسوبين فى السموات والى الله ديان الجميع والى أرواح ابرار مكملين » (عبرانيين ١٢/١٢/ — ٢٣) .

EVSEB. hist. eccl. (Martyrs of Palestine, c. 11.

(٤٦) انظر :

THEOD. hist. eccl. II. 22.

(٤٧) انظر :

Hefele, op. cit. vol. I. pp. 388, 404.
Percival : The seven ecuminical councils. (Nivene and post-Nicene Fathers. vol. XIV. pp. 15-16, 178-179.

(٤٨) انظر :

Chadwick : op. it. pp. 131-132.
Ware, op. cit. p. 30.

(٤٩) انظر :
Nicene and post-Nicene Fathers, vol. II. p. 52 n. 1.

(٥٠) تولى اكاكيوس أسقفية قيسارية سنة ٣٤٠ بعد وفاة شيخ مؤرخى الكنيسة وأستف قيسارية يوساب وكان اكاكيوس تلميذا له ومن أشد الناس تعلقا به . وان كان قد ذهب خطوات بعيدة عن طريق أستاذه فى اعتناق الاريوسية ، وسرعان ما تولى رئاسة الفريق الاريوسى اليوسابى بعد وفاة يوساب النيقوميدى سنة ٣٤٢ ، وكان هذا الأخير قد اعتلى كرسى أسقفية القسطنطينية سنة ٣٣٩ . وقد لعب اكاكيوس دورا بارزا فى المجامع الكنسية التى عقدت فى عهد قسطنطيوس خاصة مجمع انطاكية سنة ٣٤١ وسلوقية سنة ٣٥٩ . انظر :

SOCR. hist. eccl. II. 4, 40, 42.
Sozom. hist. eccl. II. 2, 5 IV. 23.
THEOD. hist eccl. II. 22, 24.
HIER. de vir. ill. c. 98.

(٥١) انظر : SOZOM. hist. eccl. IV. 25.

(٥٢) انظر : Socr. hist. eccl. VI. 25 غير انه من المعروف أن عددا من الأساقفة قد فعلوا ذلك أيضا ، بالالتجاء مباشرة الى السلطة الزمنية ممثلة فى الامبراطور . وهناك من الأمثلة ما يدل على ذلك ، فقد لجأ الدونا تيون سنة ٣١٥ الى الامبراطور قسطنطين وهو بعد سيد الغرب ليفصل فى النزاع القائم بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة ، بعد أن رفضوا الانصياع لقرارات مجمع روما سنة ٣١٣ وآرل سنة ٣٢٤ . وكذلك فعل أيضا هيلارى Hilarius أسقف بواتييه عندما كتب دفاعا الى الامبراطور قسنطيوس Apologia ad Constantium Imperatorem ونهج نفس السبيل اثناسيوس الأسقف السكندرى عند ما شخص بنفسه الى القسطنطينية لعرض شكايته على الامبراطور قسطنطين بعد أن أدرك ما يبيته له أعضاء مجمع صور المنعقد سنة ٣٣٥ ونياتهم العدائية ضده ، كما انه كتب أيضا دفاعا من نفسه للامبراطور قسطنطيوس بعد ذلك Apologia ad Constantium وقد نصت الفقرة الأخيرة من القانون السادس لجمع القسطنطينية على تحريم استئناف القضايا المتعلقة برجال الدين أمام الامبراطور أو المحاكم المدنية انظر :

Hefele. op. cit. II. p. 366.

(٥٣) انظر :

SOZOM. hist. eccl. IV. 30; VII. 2.

(٥٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة : انظر :

SOCR. hist. eccl. II. 6, 12, 16, 38, 42, 45, IV. 2.
Sozom. hist. eccl. III. 3, 9; IV. 2. 20, 26, 27.
Dictionaire de theologie Catholique, art. Mac.
Encyclopeadia of Religion and ethics, art. Mac.
The New Schaff-Herzog encyclopeadia of religions Knowledge, art. Mac.

(٥٥) انظر :

SOCR. hist. eccl. V. 8; SOZOM. hist. eccl. VII. 9.
Percieval : op. cit. vol. XIV.
HEFELE, op. cit. II. p. 357.

(٥٦) أعلن المندوب البابوى لوكنتيوس Lucentius في الجلسة السادسة عشرة لمجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ اعتراضه على هذا القانون ، وظلت روما ترفض الاعتراف بهذا الوضع الجديد الذى يخالف صراحة القانون السادس لمجمع نيقية ، وذلك حتى نجح الصليبيون فى احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ واقاموا فيها الامبراطورية اللاتينية ، وعندها سمح البابا انوسنت الثالث والمجمع اللاتيراتى الرابع سنة ١٢١٥ لبطريرك القسطنطينية باحتلال المرتبة الأولى بعد أسقف روما انظر :

Hefele. op. cit. II. pp. 538-9.

(٥٧) انظر :

SOZOM. hist. eccl. VII. 7.
SOCR. hist. eccl. V. 8; THEOD. hist. eccl. V. 8.

(٥٨) يذكر ثيودوريت Hist. eccl. V. 6 ان مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كان قاصرا فقط على أساقفة النصف الشرقى من الامبراطورية حيث وجه اليهم تيودوسيوس وحدهم الدعوة . ويعلل ثيودوريث ذلك بقوله، ان هذا النصف كان قد غرق حتى آذانه فى الجدل الاريوسى والفرق الأخرى المنشقة ، بينما آوى الغرب هادئا الى عقيدة نيقية ، حيث حافظ والدا قسطنطين هناك عليها بعد وفاة أبيهما وكذلك فعل فالنتينيان الأول .

(٥٩) انظر :

SOCR. hist. eccl. VII. 31, 32.
Genn. de vir. ill. c. 54.
Dict. theol. Cath. art. Nest.
Encycl. relig. Eth. art. Nest.
Jones, op. cit. vol. I. pp. 213-214.

(٦٠) نشب الصراع بين الأسقف السكندرى ثيوفيلوس ، وأسقف القسطنطينية يوحنا ذهبى الفم فى مطلع القرن الرابع ، نتيجة لما حسبه أسقف الاسكندرية تدخلا من جانب أسقف العاصمة فى شئون أسقفيته ، وتدخل الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) وزوجته الامبراطورة يودوسيا التى كانت تحمل العداء الكامل لأسقف العاصمة ، لحسم هذا الخلاف . وانتهى الأمر بعزل يوحنا ذهبى الفم ونفيه . انظر :

Socr. hist. eccl. VI. 2, 5, 9.
Sozom. hist. eccl. VIII. 2, 12, 13, 14, 16-19.
THEOD. hist. eccl. V. 34.

(٦١) انظر :
Chadwick, op. cit. p. 197.
Jones. op. cit. I. p. 214.
Hefele. op. cit. vol. II. pp. 355-6.

(٦٢) انظر :
SOCR. hist. eccl. VII. 34.
Jones. op. cit. vol. I. p. 214.
Chadwick, op. cit. pp. 197-198.

(٦٣) لمزيد من التفاصيل عن مجمع افسوس . انظر :
SOCR. hist. eccl. VII. 34.
Hefele, op. cit. vol. III. pp. 599.

(٦٤) انظر :
Jones. op. cit. vol. I. pp. 215, 219-221.

(65) The early Church, p. 203.

(66) Vasiliev. op. cit. vol. I. p. 105.
Baynes & Moss, op. cit. p. 99.

(67) CMH. vol. IV. part. 2 p. 107.
Hefele. op. cit. vol. III.
Percival. op. cit. vol. XIV.

(٦٨) انظر :
Ware, op. cit. p. 34.

(٦٩) انظر : CMH. vol. IV part, I. p. 19. ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور جوستنيان كان يعترف صراحة بالمركز المتفوق لأسقفية روما على بقية الكنائس الرسولية . ويبدو هذا واضحا فى رسائله وقوانينه . ففى

رسالته الى البطريرك ابيفانيوس يقول « ندين نسطور ويوطيخا ، محافظين بكل اسلوب على وحدة الكنائس المقدسة مع بابا وبطريرك روما القديمة ، لاننا لا يمكن أن نتسامح مطلقا مع اى نظم كنيسية تقر بعيدا عن قداسته ، باعتباره رأس كل رجال الله المقدسين » . وجاء فى نوفلاه الشهيرة رقم ١٣١ والتى صدرت فى عام ٥٤٥ « تطابقا مع ما اتفق عليه مسبقا (المجامع المسكونية الأربعة) نعلن : البابا المقدس لكرسى روما يعتبر الأول بين كل رجال الدين ، وان بطريرك القسطنطينية المبارك — روما الجديدة — يأتى ترتيبه الثانى بعد كنيسة روما المقدسة الرسولية » . انظر :

CMH. vol. IV. part. I pp. 436-7.

ومن المعروف ان جوستنيان كان رومانيا بالقلب والقالب ، حتى عده بعض المؤرخين آخر الاباطرة الرومان انظر :

Hussey, op. cit. p. 21.

ومن ثم كان لا يجد فى القسطنطينية (روما الجديدة) عوضا كاملا عن روما القديمة على التيبر ولهذا كان حريصا على استعادتها من أيدى القوط الشرقيين ، وقد تحقق له ذلك بعد حرب طويلة معهم دامت عشرين عاما (٥٣٤ — ٥٥٥) .

(٧٠) كلمة Lavra مشتقة من الكلمة اليونانية Laura بمعنى زقاق أو عطفة . وتأتى فى المخطوطات العربية القديم باسم السيق وجمعها «أسياق» . انظر : الأب متى المسكين : الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص ٤٥ .

(٧١) للمزيد من التفاصيل عن الحركة الرهبانية فى فلسطين انظر :

Sozom. hist. eccl. III. 14, V. 10.

وقارن :

Pallad : hist. Laus. trans. by Budge in Stories of the holy Fathers.

Baynes & Moss : op. cit. pp. 138-139.

Hussey : op. cit. pp. 107 n. 1, 109.

وراجع الترجمة العربية « العالم البيزنطى للباحث ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، حاشية ١ ، ٢ ، ٣ ص ٢٨١ .

(٧٢) كان يشد من أزر انسطاسيوس فى سياسته العقيدية المؤيدة للمونوفيزية لاهويتيان هما فيلوكسنوس Philoxenus وهو سورى من منبج Hierapolis وسفروس Severus البيسيدى . وكان مقدونيوس أسقف القسطنطينية خلقيدونيا متعصبا ، ومن ثم تبودلت الاتهامات بينه وبين الامبراطور ، فأعلن انسطاسيوس أن أسقفه يدين بالنسطورية ، ورد عليه الأسقف التهمة بأن الامبراطور يوطاخيا . وفى ٦ أغسطس ٥١١ تم عزل مقدونيوس ونفيه ، وفى السنة التالية عزل فلافيان Flavianus أسقف أنطاكية .

انظر :

Jones : op. cit. vol. I pp. 222-3, 233-4.
Vasiliev : op. cit. vol. I p. 111.
Chadwick : op. cit. pp. 206-208.

(٧٣) لمزيد من التفاصيل عن سياسة جوستنيان العقيدية انظر :

Ure : Justinian and his age, pp. 84, 599.
Vasiliev : op. cit. I. pp. 148-154.
Jones : op. cit. I. pp. 285-287, 296-298.
Chadwick : op. cit. pp. 208-209.
CMH. vol. IV. part. I. pp. 436-8; part. II. pp. 126-128.

(٧٤) فى عام ٥٩١ تم اغتيال الملك الفارسى هورميزدا ، ووجد ابنه كسرى نفسه عاجزا عن الاحتفاظ بعرشه فى مواجهة فاران Varanes الذى تمرد فى ميديا . واضطر كسرى ابرويز للهروب الى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت رحمة الامبراطور البيزنطى ، وعرض عليه التنازل عن ميافارقين Martyropolis ودارا Dara والتخلى عن ادعاءاته فى أرمينية ، مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد قبل موريس ذلك وأوفى بما عاهد عليه ملك الفرس . وفى سنة ٦٠٢ تمردت القوات الرومانية ضد الامبراطور عند الدانوب ، يتزعمها فوقاس ، الذى عاد الى القسطنطينية ، وقتل موريس مع أبنائه الخمسة ، رغم فرارهم الى الشاطىء الاسيوى واحتمائهم بكنيسة الشهيد أوتونوموس Autonomus ومن ثم أعلن الملك الفارسى استياءه لمقتل حليفه ، وساق جيوشه داخل الأراضى الامبراطورية ، معلنا عزمه على الانتقام من فوقاس . انظر :

Jones : op. cit. vol. I. pp. 311, 315-6.
Vasiliev : op. cit. vol. I. pp. 174-175.
CMH : vol. IV. part. I. pp. 29-30.

(٧٥) يحلو لبعض المؤرخين أن يخلعوا على حملات هرقل ضد فارس صفة الصليبية . ولعل ذلك يعود الى ما واكب هذه الحمـــلات من مظاهر وطقوس دينية ، شارك هرقل بنفسه فى عدد منها ، فقد انقطع عن دنيـــا الناس عدة أيام آوى خلالها الى أحد الأديرة . كما أنه وضع ايقونة العذراء فى مقدمة جيوشه ، وأحاط به عند خروجه فى حملته الأخيرة عدد كبير من رجال الاكليروس . هذا بالاضافة الى الجهود الكبيرة التى بذلتهـــا الكنيســـة فى العاصمة وبطريركها سرجيوس ، سواء بتوفير الأموال اللازمة لهذه الحرب ، أو قيام البطريرك بدور فعال أثناء حصار العاصمة من جانب الآفار ، كل هذا بالطبع الى جانب الاهتمام الواضح بعودة صليب الصلبوت الى مكانه فى بيت المقـــدس .

انظر : Hussey : The Byzantine World, p. 23.

والترجمة العربية ص ١٣٠

(٧٦) للمزيد من التفاصيل عن المونوثلية وسياسة هرقل العقيدية ازاء الولايات الشرقية : انظر :

Dictionaire de théologie Catholique, vol. X part. 2 art. mono.

Encyclopeadia of religion and ethics, art. Mono.

The New Schaff-Herzog encyclopedia of Religious Knowledge, Art. Mono.

Baynes & Moss : op. cit. p. 103.

Vasiliev : op. cit. Vol. I. pp. 222-223.

(٧٧) انظر :

Hefele : op. cit. vol. II. p. 69.

المصادر والمراجع

أولا ــ المصـــادر

— Ante — Nicene Fathers, ed. by A. Roberts & J.D. onaldson, Michigan 1892 sqq.

— ATHANASIUS : — A pologia contra Arianus; Nicene IV 2, 100-147 (= P.G. XXV 248-409).

— Depositio Arii : Nicene IV 2, 69-71 (= P.G. XXV 1, 691-695).

— Historia Arianorum ad Monachos, Nicene IV 2, 270-302 (= P.G. XXV 696-796).

— Orationes Contra Arianos : Nicene IV 2, 306-447 (= P.G. XXVI 12-525).

— EUSEBIUS : — Historia Ecclesiastica : Nicene I 2, 73-387 (= P.G. XX 45-906).

— Vita Constantini : Nicene I 2, 473-580 (= P.G. XX 905-1232).

— GENNADIUS : — De viris illustribus : Nicene III 2, 385-402.

— HIERONIMUS : — De viris illustribus : Nicene III 2, 359-384 (= P.L. XXIII 2, 601-720).

— LACTANTIUS : — De mortibus Persecutorum, Ante Nicene, VII, 301-322.

— Nicene and post : Nicene Fathers of the christian church, ed. by Philip Schaff & Henry Wace, 14 vols. Michigan 1891 sqq.

— PALLADIUS : — Historia Lausiaca, trans. by Budge in (stories of the holy fathers), London 1934.

— RUFINUS : — Historia Ecclesiastica, P.L. XXI 467-538.

— SOCRATES : — Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 1-178 (= P.G. LXVII 23-842).

— SOZOMENOS : — Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 239-427 (= P.G. LXVII 843-1630).

— THEODORETUS : — Historia Ecclesiastica : Nicene III 2, 33-159 (= P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانيا ــ المراجـــع

— Bainton (R.), Early christianity, New Jersy 1960.

— Baynes (N.) & Moss (H.), Byzantium : an introduction to East Roman civilization. Oxford 1969.

— Book (A.E.R.), A history of Rome to 565 A.D. New York 1956.

— Bullough (S.), Roman Catholicism London 1963.

— Cambridge Medieval History, planned by S.B. Bury, 8 vols. Cambridge 1964.

— Cary (M.), A history of Rome down to the reign of Constantine. London 1954.

— Chadwick (H.), The early church. London 1974.

— Creed (J.M.), Egypt and the Christian Church (Legacy of Egypt). Oxford 1947.

— Copleston (F.), A history of philosophy, Medieval philosophy, pt. I, New York, 1962.

— Dawson (ch.), Religion and the rise of western culture. New York 1958.

— De Wulf (W.), Philosophy and civilization in the Middle Ages. New York 1953.

— Dictionary of christian biography, 4 vols. ed. by W. Smith & H. Wace. London 1877.

— Dictionnaire de théologie Catholique, 15 vols. Paris 1923.

— Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest. New Jersey 1961.

— Encyclopaedia of Religion and ethics. 12 vols. London 1925 sqq.

— The new Schaff-Herzog encyclopedia of religious Knowledge, 13 vols. Michigan 1957 sqq.

— The Catholic Encyclopedia. 15 vols. New York 1913.

— Hefele (C.J.), History of the Councils of the church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W.R. Clark. Edinburgh 1972.

— Hughes (Ph.), A history of the church, vol. 2. London 1918.

— Hussey (J.M.), The Byzantine world. London 1967.

— Jackson (F.), The history of the christian church from the earliest times to the death of St. Leo the great A.D. 461. London 1909.

— Jones (A.H.M.), The Later Roman Empire, 3 vols. London 1964.

— Knowles (D.), The evolution of Medieval thought. Hong Kong 1976.

— Laistner (M.L.W.), Thought and letters in Western Europe, New York 1957.

— Lambert (W.), The canons of the first four general councils of the church, and those of the early local Greek Synods. London S.D.

— Latourette (K.S.), A history of the expansion of Christianity, 7 vols. New York 1937 sqq.

— Leff (G.), Medieval thought from S. Augustine to Ockham, Penguin Book 1958.

— Lietzmann (H.), From Constantine to Julian, a history of the early church. trans. by Bertram Lee Woolf. London 1960.

— Painter (S.), A history of the Middle Ages. New York 1954.

— Percival (H.R.), The Seven ecumenical Councils, Nicene vol. XIV. Michigan 1899.

— Shiel (J.), Greek thought and the rise of Christianity London 1968.

— Ure (P.N.), Justinian and his Age. Penguin Book, 1951.

— Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine empire, 2 vols. Madison and Milwauke 1964.

— Waddell (H.), The desert Fathers. London 1946.

— Ware (T.), The Orthodox Church. Penguin Book 1967.

— حسن حنفى حسين (دكتور)

نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط : أوغسطين — انسلم — توماس الأكوينى . القـــاهرة ١٩٦٩ .

— رأفت عبد الحميـــد (دكتور)

— الدولة والكنيسة . الجزء الأول . القاهرة ١٩٧٤

— الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى . (تحت الطبع) .

— العالم البيزنطى . ترجمة وتقديم وتعليق . القاهرة ١٩٧٧

— عبد الرحمن بدوى (دكتور)

— فلسفة العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٢

— عبـــده فراج

— معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٩

— متى المسكين (الأب) :

الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار . القاهرة ١٩٧٢

— يوسف كرم

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط . القاهرة بدون تاريخ .